جامعة الإمام الحسين العلوم الإنسانية الإسلامية

الصفحة الرئيسية للمجلة

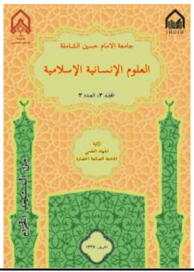

مقارنةُ القرآنِ الكريم والإمامِ المعصوم على أساسِ الوصفِ المشترك «النور»

محسن مفتاح[1]؛ سجاد فيروزى[2]

حديث الثقلين؛ القرآن والإمام؛ مفهوم النور؛ الهداية الإنسانية.

معلومات المقالة

جامعة الإمام الحسين

العلوم الإنسانية الإسلامية

المجلد ٣، العدد ٣ (١۴۴٧)، ۵۵-٣٠

تاريخ الإرسال: ١۴ صفر ١٤٤٧

تاريخ القبول: ٢ ربيع الثانى ١٤٤٧

تاريخ النشر: ٢٩ جمادى الثانيه ١٤٤٧

مراجع: ۴۴

مراسلة:

Mohsen.meftah1863@gmail.com

الملخّص

يُعَدّ حديثُ الثقلين من أهمِّ الأحاديث الواردة في التراث الشيعي، إذ يؤكّد على مكانة القرآن الكريم وأهلِ البيت «عليهم السلام» في هداية الإنسان وصيانة الدين من التحريف. ونظراً لاختلاف الآراء في تفسير هذا الحديث، وللدور المحوري الذي يحتلّه كلٌّ من القرآن والإمام في البنية العقائدية والفكرية للمدرسة الشيعية، جاءت هذه الدراسةُ لِتوضيحِ منزلةِ هذين الثقلين، وإبرازِ وحدةِ الغايةِ والانسجامِ القائمِ بينهما على نحوٍ يُبرز التكامل بين الوحي والإمامة. تسعى هذه الدراسةُ للإجابة عن السؤال الآتي: كيف يمكن، من خلال مفهوم النور، بيانُ العلاقة بين القرآن والإمام، وتحديدُ دورِ كلٍّ منهما في مسار الهداية الإنسانية المستمرة؟ وقد تمّ الاعتمادُ في هذه الدراسة على منهجٍ جديدٍ يتمثّل في مقارنةِ خصائص النور بالقرآن والإمام لتحليلِ مدلولِ حديث الثقلين وبيانِ أبعاده العقائدية والأنطولوجية. ويتناولُ القسمُ الأول من البحث الرواياتِ التفسيريةَ المأثورةَ عن أهل البيت «عليهم السلام»، مع اعتماد كتاب تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة أساساً للمباحثة، وبيانِ مفهوم التأويل بحسب ما ورد فيه وسياقه التاريخي. أمّا القسمُ الثاني، فيتناول تجلّي نور الله تعالى في القرآن والإمام، ويعرض آراءَ المفسّرين من الشيعة والسنّة حول الآية الخامسة والثلاثين من سورة النور، لربطها بمقام الإمام بوصفه مظهرَ النور الإلهي في العالم الإنساني. وفي الختام، تُناقش بعضُ خصائص النور—كإمكانية التمسّك به، ودوره في الهداية، وإيجاد اليقين القلبي، والإلهام المعرفي، وغيرها—لمقارنة القرآن والإمام في ضوء هذه السمات، وصولاً إلى فهمٍ أشمل للحديث ومقاصده.

[1] عضو هيئت علمى دانشگاه امام صادق عليه السلام، بخش زبان عربى. رشته تحصيل علوم قرآن و حديث

[2] پژوهشگر انديشكده مطالعات حسينى و دانشجوى دوره كارشناسى ارشد رشته علوم قرآن و حديث دانشگاه امام صادق«عليه‌السلام»

١. المقدمة ومشكلةُ البحث

يحتلّ الإمامُ والقرآنُ الكريم مكانةً ساميةً بوصفهما ركنينِ أساسيّينِ في الدين الإسلامي. وقد ورد حديثُ الثقلين، المنسوبُ إلى النبيّ الأكرم «صلّى الله عليه وآله»، مؤكّداً على أهمّية هذين الركنينِ وعلى الترابط الوثيق الذي لا انفصامَ له بينهما.

قال النبيّ الأكرم «صلّى الله عليه وآله» في مناسباتٍ متعدّدة: «إنّي تاركٌ فيكم الثقلين؛ كتابَ اللهِ وأهلَ بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً، ولن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض» (الصفّار، ١٤٠٤هـ: ج ١، ص ٤١٣، ح ٣).

وقد ورد هذا الحديثُ الشريفُ بطُرقٍ متواترةٍ لدى أهلِ السنّة (النيشابوري، ١٣٣٤هـ: ج ٤، ح ٢٤٠٨؛ الترمذي، ١٤١٩هـ: ح ٣٧٨٦) ولدى الشيعة أيضاً، مما يدلّ على قوّةِ تواتره وشموليّته في التراث الإسلامي. يُبيّن هذا الحديثُ النوراني أنّ الإمام والقرآنَ كِلاهما جوهرتانِ ثمينتانِ من عند الله تعالى، وهبتا للبشر ليكونا مصدرَ هدايةٍ ونورٍ إلهيٍّ دائمٍ في مسيرة الإنسان نحو الكمال. نزل القرآنُ الكريم على قلبِ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله في صورةِ الوحي، ثُمّ جُمِع بعد ذلك في هيئةِ ألفاظٍ بين دفتين. كما أنّ عِترةَ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله، وِفقاً لبعض الرواياتِ التفسيرية، قد نزلوا على قلبه أيضاً، ولكن في صورةِ بشرٍ، جُعلوا حججَ اللهِ على الأرض (الصفّار، ١٤٠٤ هـ: ج ١، ص ٧٣، ح ٥).

وعلى الرغم من أنّ الإمامَ والقرآنَ يختلفانِ في المظهر الخارجي ـــ فأحدُهما إنسانٌ والآخرُ كتابٌ ـــ إلا أنّ النظرَ العميقَ يكشفُ عن أوجهِ تشابهٍ جوهريةٍ بينهما، بما يدلّ على وحدةِ المصدرِ والغايةِ الإلهيةِ التي يجتمعان فيها.

ولفهمِ هذه الحقيقة، ينبغي ـ عبر دراسةِ الآيات والروايات والأدعية ـ البحثُ عن الصفات المشتركة بين الإمام والقرآن الكريم، إذ يمكن من خلال السماتِ الظاهرةِ الانتقالُ إلى المرتبة الباطنية، والاقترابُ من إدراكِ جوهرِ هذه الحقيقة.

وللقيامِ بذلك يمكن اعتمادُ منظورين اثنين: المنظورُ الأوّل يتمثّل في دراسةِ أقوالِ المعصومين عليهم السلام، لإثبات أنّ كلامَهم منبثقٌ من كلامِ الوحي الإلهي، وأنّ حديثَهم منطبقٌ تماماً على حديثِ الوحي. ومن خلال هذا النوع من المقارنةِ بين كلامِ المعصومين يمكن التقرّبُ ـ إلى حدٍّ ما ـ من فهمِ حقيقةِ الثقلين، غير أنّ هذا النوع من المقارنةِ يقتصرُ على جانبِ القول، كما أنّ الوصولَ إلى جميعِ النصوصِ الكلاميّة للأئمة عليهم السلام غيرُ متيسّرٍ بصورةٍ كاملة.

أمّا المنظورُ الثاني ـ وهو الأدقّ والأفضل ـ فيقومُ على الاستفادةِ من كلامِ القرآن الكريم ومن ذاتِ المعصوم نفسه، بوضعِ الصفاتِ التي تُعبّر عن حقيقةِ القرآن والإمام جنباً إلى جنب، ثمّ إجراءِ المقارنةِ بين تلك الصفاتِ المشتركة لتحصيلِ الصورةِ الأوضح لعلاقتهما الجوهرية.

في هذه الدراسة، ومن خلال منهجِ المقارنة النسبية، مع التركيز على الصفةِ المشتركة «النور»، سيتمّ تناولُ أوجهِ الشَّبَه بين القرآن والإمام.

تُعَدّ صفةُ النور من أبرزِ صفاتِ اللهِ تعالى، وقد وردتْ هذه الصفةُ مراراً في القرآن الكريم وفي رواياتِ أهلِ البيت عليهم السلام. وهذه الصفةُ لا تقتصرُ على معناها الحسّي الذي يدلّ على الإضاءةِ والإنارة، بل تتضمّن معانيَ الهدايةِ والإشراقِ والحقيقةِ أيضاً.

وانطلاقاً من هذا المعنى، يمكن القولُ إنّ الإمامَ والقرآنَ كلاهما مصدرانِ للنورِ والهداية، يشتركان في وظائفَ ودلالاتٍ متقاربةٍ تعبّر عن وحدةِ المقصدِ الإلهي في هدايةِ الإنسان. وعليه، تسعى هذه الدراسةُ للإجابة عن السؤال الآتي: كيف يمكن، من خلال مفهوم النور، تفسيرُ العلاقةِ بين القرآن الكريم والإمام المعصوم؟

٢. الخلفيّةُ البحثيّة

من خلالِ الدراساتِ السابقة، تبيَّن أنّ هناك أبحاثاً عديدةً تناولت العلاقةَ بين القرآن الكريم وأهلِ البيت عليهم السلام، وكذلك تفسيرَ آيةِ النور من منظورٍ روائيٍّ وتأويليّ.

فعلى سبيل المثال، تناول نصرت نادعلي نجف‌آبادي في رسالته الجامعية الموسومة بـ «التفسير الأثري للآياتِ المنطبقةِ على أهلِ البيت عليهم السلام في سورةِ النور» دراسةَ الرواياتِ التفسيريةِ الواردةِ في سياقِ بعضِ آياتِ سورةِ النور، وأثبتَ أنَّ كثيراً من تلك الآيات تشيرُ إلى أهلِ البيت عليهم السلام (نادعلي نجف‌آبادي، ١٣٩١هـ ش: ص ١٠).

كذلك تناولت فاطمةُ السيّداتِ سيّد شريعة دوست في رسالتها الجامعية المعنونة بـ «الترجمةِ والتحقيقِ في تفسيرِ آيةِ النور» موضوعَ ترجمةِ تفسيرِ هذه الآيةِ ودراستَها تحقيقاً، مع عرضِ آراءِ المفسّرين المختلفةِ فيها (شريعة دوست، ١٣٩٢هـ ش: ص ١٢).

ورغمَ أنّ هذه الدراساتِ قد تناولت موضوعاتٍ قريبةً من محورِ البحث، إلّا أنّ أيّاً منها لم يتطرّق بصورةٍ مباشرة إلى دراسةِ العلاقةِ المقارنةِ بين الصفاتِ المشتركةِ للقرآنِ الكريم والإمامِ المعصوم على أساسِ صفةِ «النور».

بناءً على ذلك، جاءت هذه الدراسةُ لسدِّ النقصِ القائم في البحوثِ السابقة، من خلالِ بحثِ العلاقةِ بين الإمامِ المعصوم والقرآنِ الكريم على أساسِ الصفةِ المشتركة «النور»، ومحاولةِ الكشفِ عن أبعادِها المتنوعة.

وتكمُنُ أصالةُ هذا البحثِ وجدّتُه في أنّه، على الرغم من اتّخاذه آيةَ النور أساساً منهجياً، فقد تناولَ طائفةً واسعةً من الآياتِ القرآنية والرواياتِ الشريفة، واستندَ إلى المنهجِ النسبيّ المقارن القائمِ على خصائصِ النور ومعانيه الهَدَويّة والبيانية. كما ركّزَ بصورةٍ خاصّة على كتاب تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة، ليستخلصَ في نهايةِ المطاف نتيجةً عامّةً تُبرزُ وحدةَ الهدايةِ الإلهية في القرآن والإمام.

٣. المَباني النَّظَرِيَّةُ لِلبَحثِ:

في هذا البحث، جرى إظهارُ تجلّي نورِ اللهِ تعالى في كلٍّ من القرآنِ الكريم وأهلِ البيت عليهم السلام من خلالِ الوصفِ والتحليلِ العلميّ، ثمّ تُبحثُ مسألةُ كونِ القرآنِ نوراً وكونِ الإمامِ نوراً، كلٌّ على حدة.

يعقبُ ذلك التطرّقُ إلى آيةِ النور، حيثُ تُستعرضُ مصاديقُ النور في الزياراتِ والروايات ذاتِ الصلة. كما اعتمدتِ الدراسةُ على الرواياتِ التفسيريّة مع التركيزِ على تفسيرِ تأويلِ الآياتِ الظاهرةِ في فضائلِ العترةِ الطاهرة، واستندت إلى المنهجِ التأويليّ في استكشافِ الطبقاتِ الباطنيّةِ لعلاقةِ القرآنِ بالإمام، بغيةَ الوصولِ إلى فهمٍ أعمقَ لهذه العلاقة.

ومن خلالِ تحليلِ تلك المصادرِ ودراستها، سعتِ الورقةُ إلى توضيحِ النسبةِ الجامعةِ بين الإمامِ والقرآن بوصفِهما منبعينِ إلهيَّينِ للنورِ والهداية. ونظراً إلى أنّ محورَ البحثِ يدورُ حولَ آيةِ

النور المتضمّنةِ لبنيةٍ تمثيليّةٍ رمزيّة، فإنَّ القسمَ المخصّصَ للأسسِ النظريّة يتناولُ مبحثَ «التمثيل» ومكانته في الفهمِ القرآنيّ أيضاً.

٤. ١. كتاب تأويلِ الآياتِ الظاهرةِ في فضائلِ العترةِ الطاهرة

يُعَدّ هذا الكتابُ من تأليف السيّد شرفِ الدين عليّ الحسينيّ الاسترآباديّ، المتوفّى في أواخرِ القرنِ العاشرِ الهجريّ. وقد أثنى عليه كبارُ علماءِ الشيعة وأشادوا بمكانته العلمية، ومنهم العلّامةُ المجلسيّ (المجلسى، ١٤٠٣هـ: ج ١، ص ١٣)، والشيخُ الحرّ العامليّ (الحرّ العاملي، ١٣٨٥ ش: ج ٢، ص ١٣١)، والميرزا عبد الله الأفنديّ (الأفندي، ١٤٠١هـ: ج ٤، ص ٦٦ ٦٧).

وكان الاسترآباديّ من الفقهاء والمحدّثين البارزين في المدرسة الشيعية، ممّن جمعوا بين الدقّة العلميّة وعمقِ النظر في المعارف القرآنية والروائية. ولم تقتصر أهميّتُه على شخصه فحسب، بل إنّ مصنَّفَه هذا قد نال عنايةً خاصّةً من العلماء، إذ حظيَ بالترجمةِ والاختصارِ والشرحِ من قِبل عددٍ من الأعلام، ممّا يدلّ على مكانته الرفيعة وقيمتِه العلميّة في التراث الشيعيّ.

إحدى الميزاتِ المتميّزة لهذا الكتاب أنّه، مع اعتنائِه بظاهرِ الآيات، يولي اهتماماً خاصّاً لباطنها وللصلةِ الوثيقةِ التي تربطها بأهلِ البيت عليهم السلام. وقد اعتمدَ الاسترآباديّ على طائفةٍ كبيرةٍ من الرواياتِ المتعدّدة في تفسيرِ الآيات، مبيّناً أنّ كثيراً من آياتِ القرآن الكريم تشيرُ إلى أهلِ البيت عليهم السلام. وهذا المنهجُ يُعين على إقامةِ صلةٍ أعمقَ بين القرآن وأهلِ البيت عليهم السلام، ويُفضي إلى فهمٍ أوفى لحديثِ الثقلين.

وبالمقارنة مع سائرِ التفاسير، يتّضح أنّ محوريّةَ أهلِ البيت عليهم السلام في هذا الكتاب أشدّ بروزاً ووضوحاً؛ فالتفاسيرُ الروائيةُ الأخرى ـ مثل البرهان ونور الثقلين وغيرها ـ هي تفاسيرُ روائيةٌ عامّة، وليست تفاسيرَ روائيةً أهلَ بيتيّة بالمعنى الدقيق.

ومن مزايا هذا المؤلَّفِ أيضاً عنايتُه بالاختصارِ والدقّة، وابتعادُه عن الإطنابِ والتكرار. إضافةً إلى ذلك، توصّلَ الاسترآباديّ في كتابه إلى منهجٍ تأويليٍّ خاصٍّ يُتيحُ للقارئ النفاذَ إلى الطبقاتِ الباطنيّة لمعاني الآيات القرآنية. وقد أدركَ أنّ التأويلَ ليس مجرّدَ تفسيرٍ ظاهريّ، بل هو كشفٌ عن باطنِ الآياتِ وحقيقتِها، ولذلك اتّسمَ منهجُه في التفسير بعمقٍ معرفيٍّ وروحيٍّ لافت.

إنَّ اختيارَ كتاب تأويلِ الآياتِ الظاهرةِ في فضائلِ العترةِ الطاهرة ليكونَ أساساً لهذه الدراسةِ قد تمّ لعدّةِ أسبابٍ علميّةٍ ومنهجيّة.

أوّلاً، لأنّ هذا الكتاب قد تفرّدَ بتناولِ العلاقةِ بين القرآنِ الكريم وأهلِ البيت عليهم السلام، وهو عينُ الموضوعِ الذي تتمحورُ حوله هذهِ الدراسةُ الحاضرة. ثانياً، إنَّ المنهجَ التأويليَّ المستخدمَ فيه يتوافقُ تماماً مع المنهجِ النسبيّ المقارن القائمِ على تحليلِ الصفاتِ المشتركة، وهو ما يُعدّ منطلقَ البحثِ وأُسُسَه الرئيسة.

وثالثاً، لما يتّسمُ به هذا الكتاب من شمولٍ منهجيٍّ وطرحٍ مبتكرٍ جعلاه من المصادرِ الموثوقةِ والمعتمدةِ في مجالِ التفسيرِ الروائيّ، سواء من حيثِ المحتوى أو من حيثِ المنهجِ في كشفِ الأبعادِ العميقةِ للآياتِ القرآنية.

واستناداً إلى الأسبابِ المتقدّمة، تمّ اختيارُ كتاب تأويلِ الآياتِ الظاهرةِ في فضائلِ العترةِ الطاهرة ليكونَ المصدرَ الرئيسَ لهذه الدراسة، حيث جرى الاعتمادُ على النتائجِ المستخلصةِ من تحليلِ مضامينِ هذا الكتاب في عمليّةِ تحليلِ البياناتِ والتوصّلِ إلى النتائجِ الختاميّةِ للبحث.

٤. ٢. التأويل في الكتاب المذكور

يرجع مفهومُ التأويل إلى أصلِه اللغوي، إذ هو مشتقٌّ من مادّة «أوْل»، ومعناه الرجوعُ إلى الأصل؛ فـ«تأويلُ الشيء» يعني ردّه إلى أصله وحقيقته (راغب الأصفهاني، ١٤١٢ هـ: ج ١، ص ٩٩).

وخلالَ التاريخِ الإسلاميّ، ظهرت آراءٌ متعدّدةٌ في بيانِ حقيقةِ التأويل ومجاله، من أبرزها: اعتباره نوعاً من التفسير، أو مخالفةً لظاهرِ اللفظ، أو معرفةً خاصّةً يختصُّ بها أولياءُ الله، أو أمراً عينيّاً خارجاً عن اللفظ.

أما اتجاهُ العلّامةِ الطباطبائيّ في تعريفِ التأويل، وهو أشملُ الآراءِ وأقربُها إلى القبول من وجهةِ نظرِ الباحث، فيقومُ على أنّ التأويلَ حقيقةٌ واقعيّةٌ تتجاوزُ الألفاظَ والمفاهيمَ الذهنيّة، وأنَّ البياناتِ القرآنيةَ مستندةٌ إلى تلك الحقيقة الباطنية الكامنةِ في جميعِ الآياتِ القرآنية. ويمكن الاهتداءُ إليها عبرَ الجمعِ بين الرواياتِ والعقل (الطباطبائيّ، ١٣٩٠ هـ ش: ج ٣، ص ٤٤–٤٩).

اتّبعَ السيدُ شرفُ الدين علي الحسينيّ الاسترآباديّ منهجاً تفسيرياً قريباً من منهجِ العلّامةِ الطباطبائيّ؛ إذ تناولَ الآياتَ القرآنيةَ من خلالِ منهجِ التأويل، واستندَ إليه في إثباتِ فضائلِ أهلِ البيت عليهم السلام.

وتكمنُ الخصوصيّةُ الرئيسةُ في منهجِ الاسترآباديّ مقارنةً بسائرِ المفسّرين في أنّه، بمنهجٍ ابتكاريٍّ متميّز، أولى عنايةً خاصّةً بالتأويلِ الروائيّ وبالعلاقةِ بينه وبين أهلِ البيت عليهم السلام.

ويرى الاسترآباديّ أنّ كثيراً من الآياتِ القرآنية تمتلكُ تأويلاً ظاهريّاً وباطنيّاً، وأنَّ التأويلَ الباطنيَّ هو ارتباطُ تلك الآياتِ بأهلِ البيت عليهم السلام (الاسترآباديّ، ١٤٠٩ هـ: ص ٧٦٧).

ومن خلالِ اعتمادِه على المنهجِ التأويليّ، توصّلَ الاسترآباديّ إلى الطبقاتِ العميقةِ الكامنةِ في معاني الآيات، ولا سيّما في آيةِ النور، حيثُ بيّنَ – بالاستنادِ إلى الرواياتِ الواردةِ في تفسيرها – أنّ الآيةَ تشيرُ إلى أهلِ البيت عليهم السلام، وأنّهم نورُ الهدايةِ للبشرية. وخلاصةُ القول إنَّ المنهجَ التأويليَّ الذي اعتمدهُ الاسترآباديّ يُسهمُ في تحقيقِ فهمٍ أعمقَ للقرآنِ الكريمِ ولعلاقتِه الوثيقةِ بأهلِ البيت عليهم السلام. ومن خلالِ هذا المنهج، يمكنُ النفاذُ إلى الطبقاتِ الباطنيةِ لمعاني الآيات والوصولُ إلى تفسيرٍ أكثرَ شمولاً واتّساقاً مع البنيةِ المعنويّةِ الكامنةِ في الخطابِ القرآنيّ.

٤. ٣. مكانةُ التمثيلِ في القرآنِ الكريم

إنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى أنزلَ القرآنَ لهدايةِ البشرية، كما قال تعالى: «هُدىً لِلنّاسِ» (البقرة: ١٨٥). وبما أنّ عالمَ الدنيا محدودُ القدرةِ على استيعابِ المعارفِ العميقةِ والراقيةِ الإلهيّة، فقد شاءت الحكمةُ الإلهيّةُ أن تُبيَّنَ تلك المعارفُ بما يناسبُ مستوى إدراكِ الإنسان، فجاء الخطابُ القرآنيّ بلغةٍ بيّنةٍ وسهلةٍ ومفهومةٍ ليكون أدعى إلى التذكّر والاتّعاظ، كما قال تعالى: «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ» (القمر: ٣٢).

وبالنظرِ إلى محدوديّةِ الألفاظِ في التعبيرِ عن المعاني العظيمةِ وسموِّ معارفِ اللهِ تعالى، فقد استُخدمت في البيانِ القرآنيّ أساليبُ بلاغيّةٌ دقيقةٌ ورفيعةٌ لإظهارِ جلالِ المعنى وجمالِ الخطاب. ومن أبرزِ تلك الأساليبِ التمثيل؛ إذ تُعرضُ المعارفُ الإلهيّةُ التي تفوقُ إدراكَ الإنسانِ العاديّ في صورةِ أمثالٍ حسّيةٍ قريبةٍ من الفهمِ ليتيسّرَ لهم إدراكُ جوهرِ الحقيقة، كما قال تعالى:

«وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» (الطباطبائيّ، ١٣٩٦ هـ ش: ص ٥٠).

يمكن، في إطارٍ تصنيفيّ عام، تقسيمُ الأمثالِ القرآنيّةِ إلى قسمين رئيسين بحسب الغرضِ الإلهيّ من الخطاب:

الأوّل: الأمثالُ التي تهدف إلى العبرةِ والتعليمِ الأخلاقيّ للبشر، حيثُ يُوظِّفُ اللهُ تعالى الصورَ المألوفةَ والحسيّةَ القريبةَ من أذهان الناس في نماذج واقعيّةٍ واضحةٍ ومباشرةٍ لتكونَ قوالبَ تربويّةً راسخةً ومثلاً يُحتذى به في المجتمعات الإنسانيّة. ومن ذلك تشبيهُ المرأةِ الخائنةِ بامرأتي نوحٍ ولوطٍ، وتشبيهُ المرأةِ الصالحةِ بآسيةَ ومريمَ عليهما السلام، وغيرها من الأمثلة التربويّة.

أمّا الثاني: فهو الأمثالُ التي يرادُ بها بيانُ المفاهيمِ الإلهيّةِ العميقة، حيثُ إنّ عمقَ المعاني الإلهيّة يقتضي استخدامَ صورٍ تشبيهيّةٍ حسّيةٍ تُقرّبُ فَهْمَ السامعِ بحسبِ طاقتهِ المعرفيّةِ والدينيّة، ليصلَ من خلالها إلى حقيقةِ المعرفةِ الإلهيّة. وتندرجُ في هذا النوعِ من الأمثال موضوعاتٌ كالتوحيدِ، والمعادِ، والولايةِ، والهدى، وبطلانِ أفعالِ المشركين، والحقِ والباطلِ، وغيرها. ومن أمثلتها: تشبيهُ الحياةِ الدنيا باللعبِ واللهوِ العابث، وتشبيهُ الجبالِ يوم القيامةِ بالصوفِ المنفوشِ، وتشبيهُ الهدايةِ الإلهيّةِ بنورِ مصباحٍ في مشكاةٍ، إلى غير ذلك (باقري، ١٣٩٢ هـ ش: ص ١٩، ٢٤، ٤٥).

تأتي الأمثالُ القرآنيّةُ بصورٍ متنوّعةٍ وأساليبَ بلاغيّةٍ مختلفةٍ تبعاً لغرضِ البيانِ ومستوى الرقيّ في العرض.

فقد تَرِدُ أحياناً بصورةٍ صريحةٍ ومباشرةٍ لغاياتٍ تربويّةٍ وبيانيّةٍ، كما في قوله تعالى:

«وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ...» (التحريم: ١١).

وأحياناً تُقدَّمُ المماثلةُ باستخدامِ حرفِ الكافِ، كما في قوله تعالى:

«أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ...» (البقرة: ١٩).

وفي مواضعَ أخرى يجتمعُ لفظُ ''مثل'' مع حرفِ الكاف لإبرازِ المقارنةِ بشكلٍ أكمل، كما في قوله تعالى:

«مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ...».

كما قد يُستغنى عن لفظِ ''مثل'' وحرفِ الكاف ويُفهمُ المقصودُ من سياقِ الآيةِ ومِن الدلالةِ البيانيّةِ، كما في قوله تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا... لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ...» (حسيني أجداد نياكي، ١٣٨٩ هـ ش: ص ١٠٠).

من أبرزِ خصائصِ الأمثالِ القرآنيّة أنّها تمثّلُ تنزُّلاً للمعارفِ الإلهيّةِ العميقةِ إلى مستوى إدراكِ الإنسان (مكارم الشيرازي، ١٣٨٠ هـ ش: ص ١٣). وبعبارةٍ أُخرى، فإنّ اللهَ سبحانهُ وتعالى يُبيّنُ المفاهيمَ المعقَّدةَ بلغةٍ ميسّرةٍ وقريبةٍ من فهمِ الإنسان من خلالِ أسلوبِ التمثيل.

وتتميّزُ الأمثالُ القرآنيّةُ بطابعٍ فريدٍ لا نظيرَ له؛ فالأمثالُ الدارجةُ بين الناس تقومُ على تشبيهِ شيئينِ مادّيَّينِ متجانسين، أمّا أمثالُ اللهِ تعالى في القرآنِ الكريم فهي تنزّلٌ للحقائقِ الإلهيّةِ الساميةِ بما يتناسبُ مع مستوى التفكيرِ والإدراكِ البشريّ.

ولهذا السبب، تُعدُّ هذهِ الأمثالُ مصدرَ عِبرةٍ ومحرّكاً للتأمّلِ والفكرِ، فهي — على بساطتِها في اللفظ — عميقةُ الدلالةِ واسعةُ المعنى. ومن هنا، فإنَّ الجنسَ بين المشبَّهِ والمشبَّهِ به في الخطابِ الإلهيّ يختلفُ اختلافاً جوهريّاً (سبحاني، ١٣٨٢ هـ ش: ص ٢٢).

إنَّ الوجهَ الجامعَ (وجهَ الشَّبَه) هو وحدهُ الذي يُوجِّهُ ذهنَ الإنسانِ من المشبَّه إلى المشبَّهِ به. فالمعارفُ الإلهيّةُ العميقةُ تمتازُ

بكونها ذاتَ مفهومٍ كُلّيٍّ واسعٍ، يَتضمّنُ مصاديقَ متعدّدةً. وأمّا المَثَلُ الواردُ في التمثيلاتِ القرآنيّة فهو تجسيدٌ لأحدِ تلكَ المصاديقِ.

وإنَّ إدراكَ وجهِ الشَّبَهِ في الأمثالِ القرآنيّة يُساعدُ قارئَ القرآنِ الكريمِ على اكتشافِ مصاديقَ أُخرى قابلةٍ للتطبيق على ذلكَ المفهومِ الكُلّيّ. وقد يكونُ بعضُ هذه المصاديقِ المكتشفةِ هو تأويلُ ذلكَ المثَل، ويمكنُ التوصّلُ إليه في ضوءِ الرواياتِ التفسيريّة.

فمعَ أنّ ظاهرَ الخطابِ يتناولُ مثلًا بيانيًّا أو تصويرًا أدبيًّا، إلّا أنّ تعمّقَ المثلِ القرآنيّ قد يجعلُ التأويلَ موجَّهًا نحوَ أهلِ البيت عليهم السلام، كما يظهرُ في بعضِ الموارد.

وتُعدُّ آيةُ النور من أجملِ وأعمقِ التمثيلاتِ القرآنيّة؛ إذ شبَّهَ اللهُ تعالى نورَه بِمشكاةٍ (مصباحٍ في زجاجةٍ)، وجعلَ لكلّ جزءٍ من أجزاءِ هذا التمثيلِ رمزيّةً خاصةً ومغزىً باطنيًّا دقيقًا. ومن ثَمَّ فإنَّ فهمَ هذه الآيةِ يتطلّبُ الرجوعَ إلى الرواياتِ والأقوالِ التفسيريّة الواردةِ في هذا المجال، لاستجلاءِ معانيها ومقاصدِها الروحيّة والولائيّة.

٤ . ٤. تجلّي النور الإلهيّ

يُعَدُّ النورُ أحدَ الأسماءِ والصفاتِ الإلهيّةِ التي وردَ ذكرُها مرارًا في القرآنِ الكريمِ والرواياتِ المعصوميّة. فاللهُ تعالى، بوصفِه نُورًا مطلقًا، هو المصدرُ الأصيلُ للهدايةِ والإشراقِ والرؤيةِ المعنويّةِ للإنسان.

وقد وَرَدَ في دعاءِ كُميلٍ نداءُ العبدِ إلى ربّه بقولِه: «يا نورُ، يا قُدّوس» (الكفعمي، ١٤٠٥ هـ ق: ص ٥٥٥)، وهو تعبيرٌ بليغٌ يُبرزُ مكانةَ النورِ الإلهيّ وعظمتَهُ الوجوديّة.

فـ«النور» في المفهومِ القرآنيّ هو الذي يَظهرُ بذاتِه ويُظهرُ غيرَه، كما جاءَ في البيانِ الفلسفيّ والتفسيريّ:

«الظَّاهِرُ بِذَاتِهِ، الْمُظْهِرُ لِغَيْرِهِ، هُوَ النُّورُ» (الطباطبائي، ١٣٩٠ هـ ق: ج ١٥، ص ١٢٠).

وعلى هذا الأساس، يكونُ النورُ الإلهيّ هو الحقيقةَ الجامعةَ بين الوجودِ والوعي والهداية، إذ لا نورَ لشيءٍ إلّا بكونِه متّصلًا بتجلّياتِ نورِ اللهِ تعالى.

إنّ القرآنَ الكريمَ والإمامَ المعصومَ يُمثّلانِ حقيقتَيْنِ إلهيّتَيْنِ موحّدَتينِ في الجوهر، إذ كِلَاهُمَا نورُ هدايةٍ يَنتشلُ الإنسانَ من ظلماتِ الجهلِ والضلالِ إلى نورِ المعرفةِ والحقيقة.

وهذا النورُ الإلهيّ حينَ يتنزّلُ إلى عالمِ الأرضِ، يتجلّى في صورتينِ متكاملتين:

- فالقرآنُ الكريمُ هو كلامُ الوحيِ الإلهيّ المتجلّي في ألفاظٍ هادِيَةٍ، تتضمّنُ التشريعاتِ الإلهيّةَ والأحكامَ الربّانيّةَ.
- أمّا الإمامُ المعصومُ فهو الآيةُ العظمى من آياتِ اللهِ تعالى، يتجلّى في مقامِ الهدايةِ والبيانِ والتفسيرِ، فهو المبيّنُ والمفسّرُ للقرآنِ الكريم .

ومن ثمّ، فإنّ مَن عَرَفَ القرآنَ والإمامَ وتمسَّكَ بهما فقد عَرَفَ اللهَ سبحانهُ حقَّ المعرفة (الجواديّ الآمليّ، ١٣٨٩ هـ ش: ص ٧٨ – ٨٧، ٢٣٠ – ٢٣١).

إنّ نوريّةَ القرآنِ والإمامِ قائمةٌ على نورِ اللهِ سبحانه؛ فخصيصةُ النورِ الأصليّةُ هي الهدايةُ والإرشاد، إذ حيثُما يَسطعُ النورُ تظهرُ الهدايةُ.

وعليه، فإنَّ الأئمّةَ عليهم السلام، الذين ناطَ اللهُ بهم هدايةَ الأمّةِ وقيادَتَها، وكذلك القرآنَ الكريمَ الذي يضمّ أسمى مضامينِ الهدايةِ والرشدِ، يُعدّان معًا تجلّيَيْنِ لنورِ اللهِ الهُدائيّ في الوجود.

وقد تناولت آيةُ النور (سورة النور، آية ٣٥) هذا المضمونَ بأسمى بيانٍ؛ إذ يُقدِّمُ اللهُ تعالى فيها بوصفِه نورَ السماواتِ والأرض، ويُشبِّهُ نورُه بمشكاةٍ فيها مصباحٌ مضيءٌ. هذا المثالُ النورانيّ، بحسبِ بعضِ التفاسير التي سيُشارُ إليها لاحقًا، يُرادُ به القرآنُ والإمامُ معًا، اللذانِ يُشِعّان نورَ الهدايةِ في قلوبِ المؤمنين ويُضيئانِ دروبَهم نحوَ معرفةِ الحقّ الإلهيّ.

٤. ٥. نوريّةُ القرآنِ الكريم

إنَّ القرآنَ الكريمَ، بوصفِه كلامَ الوحيِ الإلهيّ، لا يُعتبَرُ مجرّدَ كتابٍ للهدايةِ التشريعيّة، بل هو نورٌ إلهيٌّ مُنَزَّلٌ من عندِ اللهِ تعالى. فهو مصدرُ إشراقٍ وهدايةٍ يُبدِّدُ ظلماتِ الجهلِ والغواية، ويقودُ الإنسانَ إلى أنوارِ المعرفةِ والحقّ.

وقد أشارَ الإمامُ زينُ العابدين عليه السلام إلى هذه الحقيقةِ في قوله الشريف الواردِ في الصحيفةِ السجّاديّة:

«اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَعَنْتَنِي عَلَى خَتْمِ كِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَهُ نُورًا»(الصحيفة السجّاديّة، الدعاء الثاني والأربعون).

إنَّ نورَ القرآنِ الكريمِ ينبعثُ من منبعٍ حيٍّ واعٍ، ولذلك فهو يُؤثّرُ بعمقٍ في القلوبِ والنفوسِ الإنسانيّة. فهذا النورُ الإلهيّ لا يقتصرُ على بيانِ طريقِ الحياةِ المستقيمةِ للإنسانِ، بل يُضيءُ روحَه ويُنعِشُ فؤادَه بالحياةِ المعنويّةِ.

فالقرآنُ ـ بوصفِه كلامَ اللهِ المتعالي ـ يمتازُ بعمقٍ متناهيٍّ وبنيةٍ معقّدةٍ غنيّةٍ بالمعاني؛ وكلّما مرّ الزمانُ وتأمَّلَ الإنسانُ فيه أكثر، انكشفت لهُ أبعادٌ جديدةٌ ومكنوناتٌ أوسعُ من حقائقِه. وهذه الخصوصيّةُ تُظهرُ أنّ القرآنَ الكريمَ ليس مجموعًا من الألفاظِ فحسب، بل هو حقيقةٌ حيّةٌ متحرّكةٌ تتفاعلُ مع قارئها وتُؤثّرُ في ضميره ووجدانه. وقد وردَ في الروايةِ الشريفةِ: «إنَّ القرآنَ حيٌّ لا يموت»(العياشي، ١٣٨٠ هـ ق، ج ٢، ص ٢٠٣).

وهذه الكلمةُ المأثورةُ تُؤَكّدُ أنَّ الحيويّةَ الذاتيّةَ للقرآنِ هي نفسها مظهرٌ من مظاهرِ نورِه الإلهيّ؛ نورٌ يبقى حيًّا باستمرارٍ، يمتدّ فِعلُه وتأثيرُه في كلّ زمانٍ ومكانٍ، فيخاطبُ العقولَ على قدرِ إدراكها، ويغمرُ القلوبَ بأنوارِ الهدايةِ والحياةِ.

٤. ٥. ١. أثرُ الأنسِ بالقرآنِ في إحياءِ القلبِ وارتباطِه بنورِ أهلِ الذكر

كما أنَّ الأرضَ تحيا بقدومِ فصلِ الربيع، فإنَّ قلبَ الإنسانِ يبعثُ فيه الحياةَ عند أنسِهِ بالقرآنِ الكريم، فينجو من موتِ القلبِ وجمودِ الروح . وهكذا يُصبحُ القرآنُ في ذلك القلبِ ممتزجًا بلحمِه ودمِه، حتى يُصبحَ الإنسانُ حاملًا للقرآنِ في كيانِه، ويلبسَ بذلك رداءً من نورِ اللهِ تعالى يغشاهُ بهدايتِهِ وإشراقِهِ .

إنَّ تلاوةَ القرآنِ الكريمِ بالنسبةِ لتاليه ليست عملاً صوتيًّا فحسب، بل هي نورٌ ساطعٌ على وجهِ الأرض ؛ فالتاليُ يدخلُ في نورِ القرآنِ، فيستضيءُ هو نفسُهُ أولًا، ثمّ يفيضُ من نورِهِ فيُضيءُ المكانَ الذي يتلو فيه. ولهذا أكّدَ الأئمّةُ عليهم السلام أنّ أمرَ تلاوةِ القرآنِ من الطُّرقِ التي تُنيرُ المنازلَ وتُطهّرها من الظلمةِ الروحيّة .

ويَرِدُ في تتمّةِ الآية ٣٥ من سورةِ النور بيانُ تلك البيوتِ التي أذِنَ اللهُ أن تُرفَعَ ويُذكَرَ فيها اسمُه، ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾، ثمّ يُسبّحُه فيها أهلُها بالغُدُوّ والآصالِ. وأحدُ مصاديقِ الذّكرِ هو نفسُ القرآنِ الكريم، لقوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ (ص / ١). كما أنّ من أبرزِ مصاديقِ

أهلِ الذِّكرِ هم أهلُ البيتِ عليهم السلام الذين جعلهم اللهُ معدنَ النورِ والهدايةِ .

ومن غير دخولٍ في التأويلِ أو التفسيرِ بالرأي، وبصورةٍ إجماليّةٍ تراعي التمثيلَ النورانيَّ الواردَ في آيةِ النور، يمكن القولُ إنّ الآياتِ ٣٥ إلى ٣٨ من سورةِ النور تُشيرُ إلى العلاقةِ العميقةِ بين القرآنِ الكريمِ وأهلِ البيتِ عليهم السلام، تلك العلاقةُ التي يتجلّى فيها نورُ القرآنِ في بيوتِ الذِّكرِ التي أذنَ اللهُ أن تُرفَعَ، فيمتدُّ نورُ الهدايةِ من الوحيِ إلى أوليائهِ، ومنهم إلى القلوبِ المؤمنةِ في كلّ زمانٍ ومكانٍ.

وردَ في الرّوايات أنّ القرآنَ الكريمَ شُبِّهَ أحيانًا بـ الضّياءِ في اللّيلِ المظلِمِ؛ إذ يكونُ في ظلماتِ الفتَن كـ نورٍ ساطعٍ يهدي الإنسانَ إلى سواءِ السّبيل. وفي هذا المعنى قالَ الإمامُ الصّادقُ عليه السلام:

«اعْلَمُوا أَنَّ الْقُرْآنَ هُدَى اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَنُورُ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ عَلَى مَا كَانَ مِنْ جَهْدٍ»(الكليني، ١٤٠٧ هـ ق: ص ٦١٠، ح ٢١). وعليه، فإنَّ القرآنَ الكريمَ ليسَ مجرّدَ كتابٍ للمطالعةِ أو التّلاوةِ اللفظيّة، بل هو نورٌ إلهيٌّ ينبغي أن يسري في حياةِ الإنسانِ اليوميّة. فبِتلاوتهِ، والتّدبرِ في آياتِه، والعملِ بأحكامِه وتعاليمِه، يتّصلُ الإنسانُ بنورِ اللهِ تعالى، ويَهتدي في مسارِ الكمالِ والرّشدِ الروحيّ.

٤ . ٦ . نوريّةُ الإمامِ المعصومِ عليه السلام

إنَّ نورَ الإمامِ المعصومِ هو نورٌ إلهيٌّ أزليٌّ مودَعٌ في ذواتِ الأئمّةِ عليهم السلام منذُ البدء، وقد كانَ هذا النورُ مَظهَرًا لهدايةِ البشريّةِ وإشراقِها الرّوحانيّ على مرّ العصور. وتشيرُ الرّواياتُ إلى أنّ اللهَ تعالى وضعَ نورًا في صُلبِ آدم عليه السلام، وهو نورُ الأرواحِ الطيّبةِ للأئمّةِ المعصومين عليهم السلام (الاسترآبادي، ١٤٠٩ هـ ق، ص ٤٨).

وهذا المضمونُ لم يردْ في التفاسيرِ الروائيّةِ فحسب، بل نُصَّ عليهِ في بعضِ الزّياراتِ المأثورة أيضًا؛ كما في زيارةِ الأربعين، حيثُ يخاطَبُ الإمامُ الحسين عليه السلام بالكلماتِ النورانيّة:

«يَا مَوْلَايَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، أَشْهَدُ أَنَّكَ كُنْتَ نُورًا فِي الْأَصْلَابِ الشَّامِخَةِ وَالْأَرْحَامِ الْمُطَهَّرَةِ»

(المجلسي، ١٤٠٣ هـ ق، ج ٩٨، ص ٣٣٢).

وهذا النصّ الشريفُ يوضّحُ أنّ نوريّةَ الإمامِ ليستْ مَرموزًا رمزيًّا أو مجازيًّا، بل هي حقيقةٌ تكوينيّةٌ متجذّرةٌ في عالمِ الأنوار، تتنزّلُ إلى الوجودِ لتكونَ مِصباحَ هدايةٍ للبشر، وبهذا يتحقّقُ الامتدادُ الواقعيُّ للنورِ الإلهيّ في عالمِ الإنسانِ عبرَ الإمامةِ.

من الخصائصِ المميّزةِ للإمامِ المعصومِ عليه السلام خاصّيّةُ الإيصالِ إلى المطلوبِ، أي قدرتهُ على إيصالِ الآخرينَ إلى مَنازِلِ الكمالِ والرُّشدِ. وبذلك يكونُ الإمامُ مظهَرًا من مظاهرِ وجودِ اللهِ تعالى في عالمِ الهدايةِ، إذ يجسّدُ في سلوكهِ ووظيفتِه الوساطةَ الإلهيّةَ بين الخلقِ والخالق. وقد أشارَ القرآنُ الكريمُ إلى وجودِ الإمامِ في مواضعَ عدّة، مقترنًا باسمِ اللهِ ورسولِه صلّى الله عليه وآله، وذلك بصورٍ متنوّعةٍ:

فتارةً وردَ التلميحُ إلى مقامِهم في صيغةِ أُولِي الأَمْر، في قولهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (النساء / ٥٩)، حيث فسَّرَتهم الرّواياتُ بـ الأئمّةِ الهُداةِ عليهم السلام، الذين طاعتُهم امتدادٌ لطاعةِ اللهِ ورسولِه.

وتارةً أُشيرَ إليهم بعنوانِ الذينَ آمنوا، بوصفِهم أكملَ مصاديقِ المؤمنينَ بل التأويلَ الأتمّ لـ"المؤمن" كما في قولهِ تعالى:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة / ٥٥)،

حيث نصَّت الرِّواياتُ على أنّ الآيةَ نزلت في ولايةِ أميرِ المؤمنينَ عليه السلام وسائرِ الأئمّةِ من بعدِه.

ومن هذا يظهرُ أنّ الإمامَ المعصومَ هو المجرى النورانيُّ للهدايةِ الإلهيّة؛ فهو الذي يُوصِلُ السالكينَ إلى مقصدِهم التوحيديّ، تجسيدًا لقولِهِ تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (النور / ٣٥).

٤. ٦. ١. نورُ الإمامِ مظهرُ النورِ الإلهيّ في عالمِ الهداية

وقد يُعبَّر عن الأئمّة عليهم السلام في النصوصِ القرآنيّةِ أيضًا بعنوانِ «النور»، كما في قولِهِ تعالى:

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ (التغابن / ٨). روى الإمامُ الباقرُ عليه السلام في تفسيرِ هذه الآية، جوابًا لأبي خالدٍ الكابلي، أنّهُ قال: «وَاللهِ ما المقصودُ بالنورِ إلّا الأئمّةُ من آل محمّدٍ صلّى الله عليه وآله، الذينَ يبقَونَ إلى يومِ القيامة. وَاللهِ إنَّهم النورُ الذي أنزلَ اللهُ، وَهُم نورُ اللهِ في السماواتِ والأر ض. وَلَنورُ الإمامِ في قلوبِ المؤمنين أضوأُ من نورِ الشمسِ المشر قة نَهارًا» (الاسترآبادي، ١٤٠٩ هـ ق، ص ٦٧٢). تُظهرُ هذه الروايةُ بجلاءٍ أنَّ الإمامَ المعصومَ هو النورُ الإلهيُّ المنزَّلُ، الذي بهِ تتحقّقُ الهدايةُ في الوجودِ الإنسانيّ. وكلّما ازدادت معرفةُ الإنسانِ بالإمامِ النورانيّ، ازدادَ إدراكُهُ لنورانيّتِه، وانبعثت في نفسه قوّةُ الطاعةِ والانقيادِ للهِ عبره.

ومن ثَمَّ، فإنَّ معرفةَ الإمامِ والتمسُّكَ بهِ تُعَدُّ معرفةً باللهِ تعالى ذاتِه، والوصولُ إليه سبيلاً للسعادةِ الدنيويّةِ والأخرويّة. فب التوسّلِ بالأئمّةِ المعصومينَ عليهم السلام، والاستضاءةِ بـ أنوارِهم الإلهيّةِ الهادية، يمكنُ للإنسانِ أن يسلكَ طريقَ الكمالِ وينالَ مقامَ القُربِ الإلهيّ.

٥. أهمّ ما توصّلَ إليهِ البحثُ

تتوزّعُ نتائجُ هذا البحثِ على عدّةِ محاورَ مترابطةٍ تُعالجُ أبعادَ العلاقةِ بين القرآنِ الكريمِ والإمامِ المعصومِ عليه السلام من منظورٍ نوريٍّ وتأويليٍّ:

أوّلًا – يُجرى التحليلُ النسبيُّ لآيةِ النورِ (الآية ٣٥ من سورة النور)، وذلك لتبيينِ مدى انطباقِ مضامينِها على مقامِ الإمامِ المعصومِ بوصفه مَظهَرًا تامًّا للنورِ الإلهيّ في عالمِ التكوينِ والهداية.

ثانيًا – يُعرَضُ الفهمُ التفسيريُّ للآيةِ وفقَ مناهجِ المفسّرينَ من الفريقين: أهلِ السُّنّةِ والشيعةِ الإماميّةِ، مع إبرازِ نقاطِ الالتقاءِ والاختلافِ في المقاربةِ التأويليّةِ لمعنى «النور» ومصاديقِه.

ثالثًا – يُتناوَلُ تجلّي النورِ في الثقلينِ (القرآنِ والعترةِ) من حيثُ الفاعليّةُ المعرفيّةُ والوظيفةُ الهُدائيّة، فيُبيَّنُ كيف يتكاملُ نورُ البيانِ القرآنيّ مع نورِ الوجودِ الإماميّ في تحقيقِ الهدايةِ الإلهيّةِ الشاملةِ للإنسانِ والمجتمع.

٥. ١. آيةُ النورِ ونسبتُها بالإمامِ المعصومِ عليه السلام

تُعَدُّ آيةُ النور (سورةُ النور، الآية ٣٥) من أهمِّ الآياتِ القرآنيّةِ التي تُشيرُ إلى العلاقةِ الوجوديّةِ بين القرآنِ الكريمِ والإمامِ المعصوم، حيثُ يتجلّى فيها البُعدُ النوريُّ الموحِّدُ لهما بوصفهما مظهَرَيْنِ للحقِّ الإلهيّ.

إنَّ القرآنَ والإمامَ وجهانِ لحقيقةٍ واحدةٍ؛ فلو تمثَّلَ كتابُ اللهِ في صورةِ إنسانٍ، لكانَ هو الإمامُ، ولو تجسَّدت أهلُ البيت عليهم السلام في صورةِ كلماتٍ وألفاظٍ منزَلة، لتجلَّوا في هيئةِ القرآنِ الحكيم. وهذه الوحدةُ البنيويّةُ بين الكلمةِ والإنسانِ الكامل، تُعبِّرُ عنها ببلاغةٍ في حديثِ الثقلين، الذي جاء فيه قولُ النبيّ صلى الله عليه وآله:

«إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ؛ كِتَابَ اللهِ وَعِتْرَتِي».

فدلالتُ الحديثِ على عِدليّةِ القرآنِ والعترةِ تُفهمُ بمعنى أنّهما خُلاصةُ النبوّةِ واستمرارُ رسالتِها بعدَ خاتمِ الأنبياءِ صلى الله عليه وآله، إذ إنّ تواصُلَ الهدايةِ الإلهيّةِ مشروطٌ ببقاءِ الكتابِ والإمامِ معًا.

وأمّا قولُه صلّى الله عليه وآله «لَن يَفترقا حَتّى يَرِدا عَلَيَّ الحوض»، فهو إشارةٌ إلى أنّ القرآنَ والعترةَ لا ينفصلانِ أبدًا؛ فكما أنّ الإمامَ معصومٌ عن الخطأِ والتحريفِ وهو المبيّنُ لسبيلِ السعادةِ البشريّة، كذلك القرآنُ الكريمُ محفوظٌ عن الزيادةِ والنقصانِ، ومصدرُ النورِ والهدايةِ الإلهيّةِ الدائمةِ إلى يومِ القيامة (جوادي آمُلي، ١٣٨٩ ش، ص ١٤١–٢٥١).

إذن فـ القرآنُ هو الإمامُ المكتوبُ، والإمامُ هو القرآنُ الناطقُ؛ وبهذه الثنائيةِ الموحَّدةِ يتحقّقُ استمرارُ الرسالةِ الخاتمةِ، وتتكاملُ الحقيقةُ النوريّةُ في دوائرِ الكتابِ والعترةِ على السواء.

٥. ١. ١. تلازُمُ القرآنِ والعِترةِ في الآياتِ والرواياتِ

يتكرّرُ التلازُمُ بينَ القرآنِ الكريمِ والعِترةِ الطاهرةِ في نصوصِ الوحيِ والحديثِ؛ فهو تلازمٌ وجوديٌّ لا ينفكُّ إلى يومِ القيامة. فالذين قنطوا من لقاءِ اللهِ وأنكروا عذابَهُ أو جزاءَهُ الإلهيّ خاطَبُوا النبيَّ صلى الله عليه وآله بقولهِ تعالى:

«ٱئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْه...» (يونس/ ١٥).

وجاءَ الجوابُ بأنّ الرسولَ صلى الله عليه وآله لا يأتي بشيءٍ من عندِ نفسِه، بل كلُّ ما يُبلِّغهُ هو وَحْيٌ إلهيٌّ خالصٌ. ولذا يُقرِّرُ الإمامُ الصادقُ عليه السلام في تأويلِ قولهِ «بَدِّلْه»، أنّ المقصودَ بالتبديلِ هو أميرُ المؤمنينَ عليه السلام، أي إنّ مقامَ الإمامِ هو التجلّي العينيُّ للقرآنِ (استرآبادي، ١٤٠٩ ق، ص ٢٢٠).

ومن هذا المنظورِ، فإنّ القرآنَ والإمامَ نورانِ صادرانِ عن الله سبحانه وتعالى نُزِّلا معاً على قلبِ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، كما قال تعالى:

«وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ...» (الأعراف/ ١٥٧).

وهذا الاتحادُ النوريُّ بين الثقلين يمثّلُ محورَ العلاقةِ الوجوديّةِ بينهما؛ فـ نورُ الكتابِ الإلهيّ يمتدُّ في نورِ العترةِ المعصومةِ، ويكمّلُ أحدُهما الآخرَ في دائرةِ الهدايةِ الإلهيّة.

وانطلاقاً من هذا المبدأ، تُصبحُ آيةُ النور في قولهِ تعالى:

«ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ... نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَاءُ...» (النور/ ٣٥)
،

نموذجاً أعلى لـ «مِقياس النور» الذي به تُقاسُ حقيقتا القرآنِ والعترةِ. ووفقَ المقاربةِ التأويليّة، فإنّ البحثَ في هذه الآية الكريمة مع الرواياتِ المفسّرةِ وتأويلاتها يكشفُ عن التوازي الكاملِ بين نورِ القرآنِ ونورِ الإمامِ؛ فمن خلالِ حركةٍ ترجيعيّةٍ بين الآياتِ والرواياتِ، واستحضارٍ للمصداقِ التامّ للنورِ الإلهيّ في كليهما، تتجلّى صورةُ المماثلةِ النوريّةِ بينَ الثقلين بوصفهما مصدراً واحداً لهدايةِ الوجودِ الإنسانيّ.

٥. ١. ٢. النظراتُ التفسيريّةُ حولَ آيةِ النورِ

تُعَدُّ آيةُ النور من أبرزِ الآياتِ القرآنيّةِ التي أثارت اهتمامَ المفسّرينَ من المدرستينِ: السُّنّيّةِ والشيعيّةِ، إذ قدّمَ كلٌّ منهم قراءاتٍ متنوّعةً تعبّر عن منهجِهِ العقديّ والمعرفيّ في فهمِ النصّ القرآنيّ.

يرى غالبُ المفسّرينَ من علماءِ الشيعةِ الإماميّةِ أنّ هذه الآيةَ الشريفةَ إشارةٌ صريحةٌ إلى مقامِ أهلِ البيت عليهم السلام، مستندين إلى رواياتٍ متعدّدةٍ وردتْ عن الأئمّةِ المعصومينَ عليهم السلام، قاموا من خلالها بتطبيقِ العناصرِ التمثيليّةِ في الآيةِ — من «المشكاة» و«الزجاجة» و«المصباح» وغيرِها — على الأئمّةِ الأطهارِ باعتبارهم تجلّياتٍ متسلسلةٍ للنورِ الإلهيّ في عالمِ الهدايةِ الإنسانيّة.

أمّا مفسّرو أهلِ السُّنّةِ، فقد اختلفتْ أنظارُهم في معنى «النور»؛ ففريقٌ منهم فسّرَهُ بـ القرآنِ الكريمِ باعتباره منبعَ الهداية، وآخرونَ رأَوْهُ في معنى الهُدى الإلهيّ نفسِه، بينما أشار بعضُهم صراحةً إلى التأويلاتِ الشيعيّةِ مؤكدينَ إمكانَ الجمعِ بين النورِ ككتابٍ منزّلٍ والنورِ كولايةٍ ربّانيّةٍ.

وتكشفُ وحدةُ الرأيِ والاتجاهِ لدى المفسّرينَ الشيعةِ في هذا الباب عن المكانةِ المركزيّةِ لأهلِ البيت عليهم السلام في البناءِ المعرفيّ للإسلامِ الأصيل، بما يجعلُ من آيةِ النورِ نقطةَ التقاءٍ بين المفهومِ القرآنيّ والتجسيدِ الإماميّ. وفيما يلي سنعرضُ نماذجَ مختارةً من هذه الآراءِ التفسيريّة وتحليلَ دلالاتِها في ضوءِ منهجِ التأويلِ الروائيّ والعقليّ.

٥. ١. ٢. ١. تفسيرُ عبارةِ «ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ»

تُعَدُّ عبارةُ «ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ» من المحكَماتِ في آيةِ النور (النور/ ٣٥)، بينما تُصنَّفُ العباراتُ التي تليها — لما تضمَّنته من عناصرِ التمثيلِ والتشبيهِ — في قسمِ المتَشابِهاتِ التي لا يُدرَكُ معناها تمام الإدراك إلاّ بالرجوعِ إلى كتبِ التفسيرِ. ومع ذلك، يظلُّ هذا الإدراكُ متفاوتاً بحسبِ درجةِ المعرفةِ القرآنيّةِ عندَ المتلقّي.

وقد ذهبَ أكثرُ المفسّرينَ من علماءِ الشيعةِ الإماميّةِ — منهم الشيخ الطوسي (الطوسي، ١٣٨٢ ش، ج ٧، ص ٤٣٦)، والعلامة الطباطبائي (الطباطبائي، ١٣٧٤ ش، ج ١٥، ص ١ ٦٧)، وصاحبُ تفسير أنوار درخشان (الحسيني الهمداني، ١٤٠٤ ق، ج ١١، ص ٣٧٠) — إلى أنّ «النور» في هذه الآيةِ هو صفةُ فعلٍ للهِ تعالى، أي إنّه مظهرُ إنارتهِ وإشراقهِ على العوالمِ العُليا والسُفلى.

وقد قدّمَ أبو الفتوح الرازي في تفسيرِهِ روض الجِنان ورَوح الجَنان عرضاً أوسعَ يكمّلُ آراءَ سائرِ مفسّري الشيعة، مُبيّناً أنّ وصفَ اللهِ بالنورِ على حقيقتهِ غيرُ ممكنٍ للعقلِ البشريّ، غير أنّه يمكنُ — على سبيلِ المجازِ — نَسْبُ «النور» إلى تدبيرِ السمٰواتِ والأرضِ، وزينةِ السمٰواتِ بالقمرِ والنجوم، وزينةِ الأرضِ بالأنبياءِ والأئمّةِ والعلماءِ والمؤمنينَ الذين يرتبطونَ باللهِ سبحانه وتعالى (أبو الفتوح الرازي، ١٤٠٨ ق، ص ١٤١) .

أمّا العلامةُ الطباطبائي، فيقررُ أنّ اللهَ تعالى هو النورُ الذي به ظهرتِ السمٰواتُ والأرضُ بإشراقِه، وأنّ هذا النورَ نورٌ خاصٌّ لا ينتفعُ به إلاّ المؤمنون، إذ به تتجلّى الحقائقُ الإيمانيّةُ في قلوبِهم ويتحقّقُ الإشراقُ الروحيُّ الذي يرفعُهم عن ظلماتِ الجهلِ والكفر (الطباطبائي، ١٣٧٤ ش، ج ١٥، ص ١٦٧).

٥. ١. ٢. ٢. الرؤى التفسيريّة المقارَنة لِمَعنى «النور» عند الشيعة والسنّة

يرى الميرزا محمد المشهدِي القمّي، في تفسيره الروائي (كنزُ الدقائق وبحرُ الغرائب)، أنّ إطلاقَ لفظِ "النور" على اللهِ تعالى لا يُعَدّ صحيحاً على وجهِ الحقيقةِ إلاّ إذا اقترنَ بقرينةٍ مخصِّصةٍ، كالإشارةِ إلى إضاءةِ السمٰواتِ والأرضِ بالنجومِ، أو تدبيرِ شؤونِ الكونِ، أو إفاضةِ الوجودِ على مَن فيها، أو كونهِ الهادي لأهلِ السمٰواتِ والأرضِ (المشهدِي القمّي، ١٣٦٨ ش، ج ٩، ص ٢٩٩).
فهو بذلك يؤكّدُ أنّ الوصفَ الإلهيَّ بـ «النور» لا يُرادُ به الذاتُ المقدّسةُ، بل فعلُ الإشراقِ والتدبيرِ الصادرُ عنها.

أمّا فخرُ الدين الرازي، في تفسيرهِ مفاتيحُ الغيب، فقد طرحَ احتمالاً قريباً في الرؤيةِ، إذ يرى أنّ اللهَ تعالى يُنوّرُ السماءَ بالملائكةِ، ويُنوّرُ الأرضَ بالأنبياءِ، لأنّ مفهومَ «النور» عندَهُ يدلّ على الهدايةِ الإلهيّةِ في العلمِ والعملِ، مستشهداً بختامِ الآيةِ الكريمة:

«يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ» (النور / ٣٥).

وبناءً على ذلك، فإنّ الرازي يؤولُ آيةَ النورِ بمعناها "الهادي"، ويجعلُ «النورَ» رمزاً للوسائطِ الإلهيّةِ في الهدايةِ والمعرفةِ، لا للنورِ الحسّيّ أو الذاتيّ (الفخر الرازي، ١٤٢٠ ق، ج ٢٣، ص ٣٧٩).

وهكذا تُظهرُ هذه المقارنةُ بين المشهدِي القمّي والفخر الرازي اختلافَ المنهجِ في تحديدِ دلالةِ «النور»: فالأوّلُ يتناولُه في إطارِ الفعلِ التأويليّ والأنطولوجيّ المرتبطِ بالإفاضةِ والتدبير، بينما الثاني يُركّزُ على الفهمِ المعرفيّ الهُدويّ للنورِ بوصفهِ طريقَ الإرشادِ الإلهيّ إلى الحقّ.

٥. ١. ٢. ٣. التمثيلُ المركَّبُ في آيةِ النورِ ومفهومُ "المِشْكَاة"

يستعملُ اللهُ تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ تمثيلاً جماليّاً بليغاً حين شَبَّهَ نورَهُ بالمِشْكَاة، كما في قولِهِ تعالى:

«مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ» (النور / ٣٥).

فإنْ كانَ التشبيهُ مقصوراً على المِشْكَاةِ نفسها، فإنَّه يُعَدّ من نوعِ التشبيهِ المفرد، حيث يُشبَّهُ النورُ بعنصرٍ واحدٍ من عناصرِ الصورةِ. غيرَ أنّ بعضَ مفسّري أهلِ السُّنَّة كالإمام ابن عاشور في تفسيره التحريرُ والتنوير (ابن عاشور، ١٤٢٠ ق، ج ١٨، ص ١٨٨)، وكذلك بعضَ مفسّري الشيعة كـ العلامة الطباطبائي في الميزان في تفسير القرآن (الطباطبائي، ١٣٩٠ ش، ج ١٥، ص ١٢٣)، بيّنوا أنَّ هذا التشبيهَ يدخلُ ضمنَ التشبيهِ المركَّب؛ أي إنَّ نورَ اللهِ تعالى قد شُبِّهَ بمنظومةٍ متكاملةٍ هي المِشْكَاةُ بجميعِ أجزائِها وتفاصيلِها الدقيقةِ.

ورغمَ أنّ النورَ الإلهيَّ قد شُبِّهَ أيضاً بـ «المِصباح»، إلاّ أنّ تقديمَ ذكرِ المِشْكَاةِ في النصّ القرآنيّ يدلُّ على أنّ مقامَ التشبيهِ مركَّبٌ، لأنّ المِشْكَاةَ تمثّلُ النظامَ أو البنيةَ التي يُوضَعُ فيها المِصباحُ، فهي بمثابةِ جهازٍ متكاملٍ للتنوير يتكوّنُ من المِصباحِ، والزجاجةِ، والزيتِ، وسائرِ العناصرِ التي تُنتِجُ الإضاءةَ الموحّدةَ. ومن هذا المنظور، يمكنُ أن يُشبَّهَ نورُ اللهِ تعالى بكلّ جزءٍ من هذه الأجزاء بحسبِ الخاصيّةِ التي تُعبّرُ عن وظيفةِ ذلك الجزء في منظومةِ الإشراقِ الكونيّ.

وقد ذكرَ المفسّرونَ مصاديقَ متعدّدةً للمِشْكَاة في التراثِ التفسيريّ، كالقلبِ المؤمن، أو بيتِ النبيّ ﷺ، أو وجودِ الإمامِ المعصوم، وكلُّ تلكَ المصاديقِ صحيحةٌ في إطارها التأويليّ الخاصّ، إذ تعبّرُ عن مواضعَ تجلّي النورِ الإلهيّ في العالمِ الإنسانيّ والروحيّ.

فسّرَ بعضُ المفسّرينَ، مثلُ الزمخشري في الكشّاف، قوله تعالى: «مَثَلُ نُورِهِ» بأنّه مثلُ حالِ مَن آمنَ باللهِ تعالى، أي إنَّ الآيةَ تصفُ الصورةَ النورانيّةَ للإيمانِ الراسخِ في قلبِ المؤمنِ الذي يتلقّى الإشراقَ الإلهيَّ (الزمخشري، ١٤٠٧ ق، ص ٢٤١–٢٤٢).

وذهبَ ابن عاشور إلى عرضِ تعدّدٍ في دلالاتِ ''النور''، فبيّنَ أنَّه يمكنُ أن يُرادَ به: أسبابُ المعرفةِ بالحقيقةِ، أو الحجّةُ القائمَةُ، أو المرشِدُ الذي يهدي الإنسانَ إلى العملِ الصالح (ابن عاشور، ١٤٢٠ ق، ج ١٨، ص ١٨٨). كما اعتبرَ بعضُهم أنّ «النور» يُمثِّل رسولاً أو مَبعوثاً من الله تعالى يكون تجلّياً وظهوراً من نورِهِ الذاتيّ.

وفي المقابل، رأى أكثرُ مفسّري الشيعة ومعهم بعضُ علماءِ أهلِ السُّنّة — ومنهم السيوطي (السيوطي، ١٤٠٤ ق، ج ٥، ص ٤٨–٤٩) — أنّ المِشْكَاةَ هي كنايةٌ عن جَوفِ رسولِ اللهِ ﷺ أو عن شخصِهِ الكريم، بوصفهِ أصدقَ المؤمنينَ في أهلِ السمٰواتِ والأرضِ وأكملَهم نوراً. وبهذا أشارت تفاسيرُهم، ولو بطريقةٍ غير مُصرَّحٍ بها، إلى تأويلٍ باطنيٍّ للآية يرى في النبيّ الأكرم ﷺ المرآةَ التامّةَ للنورِ الإلهيّ في عالمِ الإمكان.

ذكرَ المولى فتح الله الكاشانيّ في تفسير منهج الصادقين روايةً عن الإمام الرضا عليه السلام تُسندُ المراتبَ الرمزيّة في آيةِ النور إلى شخصيّاتٍ معيّنةٍ من منظومةِ الهداية؛ فالأئمّةُ عليهم السلام هم المِشْكَاة، والمِصْبَاحُ هو رسولُ الله صلى الله عليه وآله، واللهُ تعالى يهدي مَن يشاءُ إلى ولايةِ أهلِ البيت عليهم السلام. وفي روايةٍ أخرى، صرّح الكاشانيّ بأنّ المِشْكَاة هي شخصُ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله (الكاشانيّ، ٩٨٢ ق، ج ٦، ص ٢٩٥).

ويُشيرُ الكاشانيّ إلى أنَّ انتشارَ نورِ المِصباحِ إلى الجهاتِ المحيطةِ من أبرزِ خصائصِ المِشْكَاة بوصفها نظاماً هندسيّاً للإنارة الإلهيّة؛ فالمِصباحُ يمثّلُ قلبَ هذا البناءِ النورانيّ ومحورَ حياته، ومن ثَمَّ وجبَ صونهُ وحمايتُه. وهنا تؤدّي الزُّجاجة وظيفةَ الحمايةِ الدقيقةِ للمِصباح، إذ تحفظهُ من الغبارِ والعواملِ المكدِّرة. وتتميّزُ كذلك بشفافيّتِها التي تُتيحُ انبعاثَ النورِ وانتشارَهُ بصفاءٍ تامّ، حتى لتبدو كأنّها نجمٌ دُرّيّ يسطعُ بلا كدرٍ ولا شَوْبٍ من ظلمة، وهو ما يُفسّرُ – على الأرجح – استعمالَ التعبيرِ القرآنيّ كأنّها للدلالةِ على المشابهةِ دونَ التطابق.

ويُظهِرُ التحليلُ أنَّ الزُّجاجةَ فانيةٌ في المِصباح، أي لا تملكُ نوراً ذاتيّاً، بل تعكسُهُ تماماً كما تعكسُ المرآةُ الشعاعَ الأصليَّ من مصدره. أما الزيتُ المستخرجُ من شجرةِ الزّيتون، فيُعدّ العنصرَ الأساسَ في بقاءِ الاشتعالِ النورانيّ؛ إذ يتّصفُ بطهارتِهِ وصفائهِ حتى لتكادُ تضيءُ قبلَ أن تمسَّها نار، بما يرمزُ إلى الإشراقِ الفطريّ للولايةِ قبلَ ظهورِها الحِسّيّ.

يرى الباحثونَ أنَّ سببَ كونِ هذا النورِ أكملَ الأنوارِ الإلهيّة وأسطعَها إشراقاً، وكونَهُ وُصِفَ بأجملِ مثالٍ مركّبٍ يضمُّ عناصرَ كلٌّ منها متّصفٌ بأرفعِ صفاتِ الكمالِ النوريّ وكأنّها متّصلةٌ مباشرةً بالنورِ الحقيقيّ، إنّما يعودُ إلى أنَّ هذا النورَ منسوبٌ إلى الذاتِ الإلهيّة نفسِها.

وحيثُ إنّ التشبيهَ الواردَ في الآيةِ تشبيهٌ مركَّبٌ – كما أقرَّ بذلك كثيرٌ من مفسّري الشيعةِ وأهلِ السنّة – فإنّ جميعَ عناصرِ المِشْكَاة تُجسِّدُ في رمزيتها شخصَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله، إذ تتآلفُ هذه الأجزاءُ في نظامٍ واحدٍ ليكونَ مظهرَ النورِ الإلهيّ في عالمِ الشهادة.

وبناءً على ذلك، يمكنُ تشبيهُ كلِّ جزءٍ من أجزاءِ المِشْكَاة بشيءٍ من نورِ اللهِ تعالى، بحيثُ يقابلُ كلُّ عنصرٍ إنساناً من أهلِ الإيمان

تتجلّى فيه خاصيّةٌ من خصائصِ ذلك النور. فتوصيفاتُ المِشْكَاة وأجزائها — مع شمولِها لمعانٍ ومصاديقَ متعدّدة — تحتملُ تأويلاً حقيقيّاً يُمثِّلُ أتمَّ مصداقٍ لهذه الرموزِ النورانيّة.

وهكذا، فإنَّ النورَ الذي يحيطُ بهذه المصاديقِ كلِّها يلعبُ دورَ الهداية؛ لأنّه نورٌ بالذات يسعى بطبيعته إلى إفاضةِ النورِ على غيرِه وإدخالِهم في مجاله الإشراقيّ، فيتحقّقُ الأثرُ المقصودُ من التمثيلِ الإلهيّ في قوله تعالى : اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

٥. ١. ٣. التأويلُ الإسترآباديّ لمعنى النور ومراتبه في آية النور

يُعرّفُ السيّد شرف الدين عليّ الاسترآباديّ معنى النور في تأويلِ الآيات الظاهرة في فضائلِ العترة الطاهرة بأنَّه الهدايةُ التي تهدي المؤمنينَ إلى نورِ الإيمان. فآيةُ النورِ عنده تمثيلٌ ضَرَبه اللهُ تعالى لنبيّه الأكرم صلى الله عليه وآله، إذ يرى أنَّ الرسولَ هو مَظهَرُ النورِ الإلهيّ الذاتيّ الذي به استنارَ الوجودُ وهُدِيَ العباد.

وفي هذا التأويلِ الباطنيّ، تُشيرُ المِشْكَاةُ إلى صدرِ النبيّ، والزُّجاجةُ إلى قلبِه، والمِصباحُ إلى نُبوّته التي تُضيءُ الدينَ والدنيا معاً، فينشرُ بشعاعِها نورَ الهدايةِ إلى سائرِ الخلق. ويرى الاسترآباديّ أنَّ النبيَّ هو تجلّي النورِ الإلهيّ في عالمِ الإمكان، ووسيلةُ انتقالِ الهدايةِ من عالمِ الأمرِ إلى عالمِ الخلق.

ويعزّزُ المؤلِّفُ هذا الفهمَ بإيرادِ الرواياتِ التأويليّة للآية؛ منها روايةٌ عن الإمام الرضا عليه السلام التي تقولُ إنَّ اللّهَ تعالى يهدي إلى ولايتِنا أهلِ البيت مَن يشاءُ من عبادِه، فيجعلُها مَناطَ الهدايةِ الإلهيّة. كما يوردُ روايةً أخرى تُفسِّرُ قوله تعالى: «نُورٌ عَلَى نُورٍ» بأنّه الإمامُ المعصومُ من ذرّيّةِ النبيّ صلى الله عليه وآله، يَخلُفُهُ إمامٌ بعدَ إمامٍ، لتكونَ استمراريّةُ النورِ الإلهيّ في الأرضِ عبرَ سلسلةِ الأئمّة عليهم السلام (الاسترآباديّ، ١٤٠٩ ق، ص ٣٥٦–٣٥٩).

٥. ١. ٤. التأويلُ الروائيّ المركَّب لِمَثَلِ النور في التفاسير الإماميّة

كما وَرَدَ في سائرِ التفاسيرِ الروائيّة، فقد أُبرِزَ التأويلُ الحقيقيُّ لمكوّناتِ هذا المَثَلِ القرآنيّ على لسانِ أئمّةِ أهل البيت عليهم السلام في رواياتٍ متعدّدةٍ. ومن ذلك ما رواه القمّيّ المشهديّ في تفسيره عن الإمام الصادق عليه السلام؛ إذ جعلَ فاطمةَ عليها السلام هي المِشْكَاة، والحسنَ عليه السلام هو المِصْباح الذي فيها، والحسينَ عليه السلام هو الزُّجاجة التي في المِصْباح. كما نُسبَ الكوكبُ الدُّرّيّ إلى الزهراء عليها السلام في مقامِ نساءِ أهلِ الدنيا، واعتُبِرَت الشجرةُ المباركةُ إشارةً إلى إبراهيم عليه السلام. أمّا قوله تعالى «نُورٌ على نُورٍ» فقد أولَّهُ الإمامُ الصادق عليه السلام بأنّه إمامٌ بعدَ إمامٍ، وأوضحَ أنَّ المقصودَ من «يَهْدي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشاءُ» هو أنّ الهدايةَ تتحقّقُ بوساطةِ
الأئمّة عليهم السلام (القمّيّ المشهديّ، ١٣٦٨ ق، ج ٩، ص ٣٠٤–٣٠٨).

كما نُقِلَت روايةٌ عن رسولِ الله صلى الله عليه وآله قال فيها مخاطباً عليَّ عليه السلام: يا علي، النورُ اسمي، والمِشْكَاةُ اسمُك، والمِصْباحُ الحسنُ والحسينُ عليهما السلام، والزُّجاجةُ

كأنّها كوكبٌ دُرّيٌّ	عليُّ بن الحسين عليه السلام،
يُوقَدُ من شجرةٍ	محمّد بن عليّ عليه السلام،
مباركةٍ	جعفر بن محمّد عليه السلام،
زيتونةٍ	موسى بن جعفر عليه السلام،
لا شرقيّةٍ	عليُّ بن موسى عليه السلام،

محمّد بن عليّ عليه السلام، ولا غربيّةٍ
عليُّ بن محمّد عليه السلام، كاد زيتُها
الحسن بن عليّ عليه السلام، يُضيءُ
المهديُّ عليه السلام (بحارانجي، ١٣٩٣ ش، ج ١٠، ص ٢٥٠).

وانطلاقاً من مبدأِ التشبيهِ المركَّب الذي بُنِيَ عليه هذا المثَل، فإنّ مَن ذهبَ من علماءِ أهل السنّة إلى أنَّ المشكاة هي رسولُ الله صلى الله عليه وآله الذي شُبِّه بالنور، يمكن — بحسب التحليل المستند إلى الرؤية الإماميّة — أن يُعمِّمَ التأويلُ ليشملَ جميعَ أجزاءِ المِشْكَاة باعتبارها عترةَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله، فكلُّ جزءٍ منها يرمزُ إلى إشعاعٍ من إشراقِ النورِ الإلهيّ الواحدِ المتجلّي في سلسلةِ الأئمّة عليهم السلام.

٥. ١. ٥. الرؤيةُ التكميليّة لِدلالةِ التمثيلِ في آيةِ النور ومرجعُها العِتْرَةُ النبويّة

يتّضحُ من مجموعِ تفاسيرِ العلماءِ المذكورينَ أنّهم أولَوا الجانبَ الظاهريَّ للآية اهتماماً خاصّاً، فذكروا مصاديقَ متعدّدةً لمثَلِ النور تبعاً للطبيعةِ التمثيليّةِ للنصّ القرآنيّ، وكلُّ تلك المصاديقِ صحيحةٌ في إطارِها الخاصّ. غيرَ أنّ التأويلَ الحقيقيَّ للنور وسائرِ عناصرِ هذا التمثيلِ إنّما هو في العِتْرَةِ الطاهرةِ لرسولِ الله صلّى الله عليه وآله، إذ يُشكّلونَ الامتدادَ الحيَّ للنورِ الإلهيّ في عالمِ الخلق.

ويُبيِّنُ هذا التمثيلُ البديعُ حقيقةَ النورِ الإلهيّ الذاتيّ الذي لما كانتِ الألفاظُ قاصرةً عن إدراكِه الكامل، صُوِّرَ ضمنَ مثلٍ يقرِّبُ المعنى إلى الأذهان. فالآيةُ تشيرُ إلى أنَّ كلَّ ما يُنسَبُ إلى الله تعالى يجبُ أن يكونَ في أعلى مراتبِ الصفاءِ والكمال؛ ولذلك اختيرت عناصرُ التمثيلِ — من الزجاجةِ والزيتِ والمِصباح — لتدلَّ على النقاءِ المطلقِ والصفاءِ المتناهي للنورِ الإلهيّ.

وخَتَمتِ الآيةُ بتقريرِه تعالى أنَّه يهدي إلى نورِه مَن يشاء، أي إنَّ سبيلَ الهدايةِ إلى النورِ الإلهيّ يبقى مفتوحاً أمامَ من شاءَ اللهُ لهُ القربَ والدخولَ في هذا النور، وهو — بحسب التأويلِ الروائيّ الإماميّ — نورُ اللهِ المتمثّلُ في عِتْرَةِ نبيّه صلّى الله عليه وآله، الذينَ بهم تُستكمَلُ الهدايةُ وتتحقّقُ الغايةُ الإشراقيّةُ للمَثَلِ الربّانيّ (أنوار الهداية).

٥. ٢. تجلّي نورِ الثَّقَلَيْن

كما تقدّمَ في الفصولِ السابقة، استُعملَ وصفُ النور كلٌّ من القرآن الكريم والأئمّة عليهم السلام، وقد وردت لهم مصاديقُ ووظائفُ متعدّدةٌ تعبّر عن هذا الوصفِ المشتركِ في النصوصِ القرآنيّةِ والروائيّة. وبالاستنادِ إلى حديثِ الثقلين وما سَبَقَ من التحليل، يمكنُ القولُ إنَّه كلّما أُطلِقَ وصفُ النورِ على القرآنِ الكريمِ لبيانِ وظيفةٍ أو أثرٍ معيّنٍ، فإنّ تلكَ الوظيفةَ تصدقُ كذلك في الإمامِ المعصوم، والعكسُ صحيحٌ؛ فحيثُ يُوصَفُ الإمامُ بالنورِ وتُذكرُ لهُ وظيفةٌ أو تأثيرٌ، تُثبتُ تلكَ الوظيفةُ للقرآنِ أيضاً بوصفِهما وجهينِ متكاملينِ للحقيقةِ الواحدة التي هي نورُ اللهِ الهادي إلى سواءِ السبيل.

وللوقوفِ على كفاءاتِ هذا الوصفِ وآثارِه العمليّةِ، ينبغي النظرُ إلى العباراتِ القرآنيّةِ والروائيّةِ والدعائيّةِ والزياراتِ التي تَرِدُ بعدَ ذكرِ النور، إذ تُوضّحُ في طيّاتها الوظائفَ المتعدّدةَ للنور الإلهيّ في الثقلين: في الهداية، والإحياءِ القلبيّ، والتجليّ الروحيّ، وسريانِ العلمِ والحقّ في الكيانِ الإنسانيّ. فهذه التجلّياتُ تُعيدُ بناءَ معنى النور على أساسٍ واحدٍ يجمعُ بين كتابِ الله وعترته، حيثُ كليهما مصدرُ الهدايةِ الربّانيّةِ وبابُ الوصولِ إلى بطونِ الحقيقةِ الإلهيّة.

٥. ٢. ١. منهجُ النِّسبةِ التحليليّة: الوظائفُ والمصاديقُ النورانيّة

واستكمالاً لعمليةِ نسبةِ التجلّي النورانيّ بين الكتابِ والإمام، سيتناولُ البحثُ في هذا الفصل أربعَ وظائفٍ أساسيّةً للنور ومصداقَيْنِ رئيْسَيْنِ له، وذلك في ضوءِ النصوصِ القرآنيّةِ والرواياتِ المأثورةِ التي تُوضِّحُ أبعادَ عملِ النورِ في الهدايةِ والإحياءِ وكشفِ الحقائقِ الباطنيّةِ. يهدفُ هذا القسمُ إلى بيانِ كيفيّةِ تجلّي كلّ وظيفةٍ ومصداقٍ من هذه المظاهرِ في الثّقلين، بما يرسّخُ وحدةَ الحقيقةِ النورانيّةِ بين القرآنِ الكريم والإمامِ المعصوم عليه السلام.

تتجلّى الوظائفُ الأساسيّةُ للنورِ الإلهيّ في الثَّقَلَيْن من خلال أربعِ خصائصَ محوريّةٍ هي: العُروةُ الوُثقى، والهادي، والتّبيان، والفارقُ بينَ الحقِ والباطل. وتمثّلُ هذه الوظائفُ المساراتِ العمليّةَ التي يُؤدّيها النورُ في منظومةِ الهدايةِ الربّانيّةِ الموحَّدةِ بين القرآنِ الكريم والإمامِ المعصوم عليه السلام؛ إذ يُجسّدُ كلٌّ منهما مظهراً من مظاهرِ هذا النورِ في مجالِ الهدايةِ المعرفيّةِ والوجوديّةِ.

كما يتجلّى النورُ في مصداقَيْنِ أساسيَّيْن هما الذِّكرُ واليَقين، وهما يُمثّلانِ البُعدينِ المعرفيَّ والعرفانيَّ في فعاليّةِ النور الإلهيّ: فالذِّكرُ يُعيدُ القلبَ إلى حضرةِ اللهِ تذكيراً واستنارةً، واليَقينُ يُثبّتُ البصيرةَ على الحقِّ ويُكمِلُ درجاتِ الهدايةِ إلى الكمالِ الإلهيّ. وسيتولّى البحثُ الآتي بيانَ هذه الوظائفِ والمصاديقِ بتفصيلٍ تحليليّ يُبرزُ وجوهَ الاتّحادِ بين القرآنِ والعترةِ الطاهرةِ في نطاقِ حقيقةِ النور.

٥. ٢. ١. ١. النور؛ قابلُ التمسُّكِ والاهتداء

إنّ الله سبحانه وتعالى هو النورُ الذي يُؤنِسُ عباده المستوحشين في ظلماتِ الغربةِ والخوفِ: «يا نورَ المستوحشين في الظُّلَم» (الطوسي، ١٤١١ ق، ج ٢، ص ٨٤٤). وكما أنّه تعالى هو مصدرُ النورِ المطلق، فإنَّ القرآنَ الكريمَ والإمامَ المعصومَ عليه السلام تجلّيانِ لهذا النورِ الإلهيّ، يُخرجانِ البشريّةَ من الظلماتِ إلى النورِ ويقودانِها إلى سبيلِ السعادةِ والكمال.

وقد رُويَ عن أميرِ المؤمنين عليه السلام قوله: «إنَّ القرآنَ ظاهرُه أنيقٌ وباطنُه عميقٌ... لا تُكشَفُ الظُّلُماتُ إلا به» (التميميّ الآمديّ، ١٤١٠ ق، ج ١، ص ٢٣٦)، وهو دالٌّ على أنّ رفعَ الظلمةِ المعنويّة لا يكونُ إلاّ بنورِ القرآن. وبما أنّ القرآنَ والإمامَ متكافئانِ في المقامِ بحسبِ حديثِ الثقلين، فإنَّ هذا الوصفَ – كشفِ الظلمات – يصدقُ أيضاً في الإمامِ؛ فهو نورُ اللهِ في الأرض، وسفينةُ الخلاصِ من تيهِ الجهلِ والضلال.

ولذلك أُطلقَ لفظُ النور على عليّ بن أبي طالب عليه السلام وسائرِ المعصومين، كما تردّدَ في الزياراتِ المأثورةِ العبارةُ: «السلامُ عليك يا نورَ اللهِ في ظُلُماتِ الأرض» (المجلسيّ، ١٤٠٣ ق، ج ٩٩، ص ١٦)، وفي صيغةِ الجمعِ أيضاً: «السلامُ عليكم يا نورَ اللهِ في ظُلُماتِ الأرض» (المجلسيّ، ١٤٠٣ ق، ج ٩٩، ص ٢١٥). وهذه التحيةُ تؤكّدُ أنّ النورَ الإلهيّ المتجلّي في الثقلين هو العُروةُ الوثقى الإلهيّة التي يتشبّثُ بها الإنسانُ عند اشتدادِ ظلماتِ الجهل.

أما التمسّكُ بهذا النورِ المنقذِ فهو مشروطٌ بالتبرّي من الطاغوتِ والإيمانِ بالله، كما قال تعالى: «فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطّاغوتِ ويُؤمِنْ باللهِ فقدِ استمسكَ بالعُروةِ الوُثقى...» (البقرة / ٢٥٦). وقد فسّرَ الإمامُ الرضا عليه السلام هذه العُروةَ بأنّها «حبلُ الله المتينُ وعُروتهُ الوُثقى» أي أنّ القرآنَ الكريمَ هو الرّباطُ المتينُ والدَّعامةُ الثابتةُ للهدايةِ (المجلسيّ، ١٤٠٣ ق، ج ١٧، ص ٢١٠). وهكذا

يتّضحُ أنّ النورَ القابلَ للتمسّك هو نورُ الثقلين، قرآنٍ وإمامٍ، الموحّدِ بين الهدايةِ المعرفيّةِ والوجوديّةِ في مسارِ الإنسان نحو الله.

٥. ٢. ١. ١. ١. تمسّكُ الإنسانِ بالنورِ وشرائطُهُ الإيمانيّة

تُؤكّد الآياتُ القرآنيّةُ أنّ التوجّهَ الكاملَ إلى اللهِ تعالى بالقلبِ والجوارحِ، مقروناً بالإحسانِ في العمل، هو الشرطُ الأساسُ للتمسّكِ بالعُروةِ الوُثقى، كما قال تعالى: «وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ» (لقمان / ٢٢). وقد فَسَّرَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله هذه الآيةَ في محضرِ أصحابِهِ، فقال: «مَعَاشِرَ أَصْحَابِي، مَنْ أَحَبَّ أَهْلَ بَيْتِي حُشِرَ مَعَنَا، وَمَنِ اسْتَمْسَكَ بِأَوْصِيَائِي مِنْ بَعْدِي فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى» (المجلسيّ، ١٤٠٣ ق، ج ٣٦، ص ٣١٠).

تدلُّ هذه الروايةُ بوضوحٍ على أنَّ محبّةَ العترةِ والتمسّكَ بهم هو عَيْنُ التمسّك بالعروة الوثقى التي تربط العبدَ بربّه رِباطاً لا ينفصم.

وبما أنَّ المعصومين عليهم السلام نورٌ واحدٌ، وأنَّ حقيقةَ القرآنِ هي خُلُقُ رسولِ الله صلى الله عليه وآله كما قال العلّامةُ الجوادي الآمليّ (١٣٨٩ ش، ص ٢٣٩)، فإنَّ جوهرَ القرآنِ هو عَيْنُ خُلُقِ أهلِ البيت عليهم السلام. فكلامُ الوحيِ الذي ارتبطَ وجوداً ومعنىً بأمير المؤمنين وأبنائهِ الأئمّة الهادين هو نفسُهُ التمسّكُ الموصِلُ إلى الحقِّ والصراطِ المستقيم، كما قال تعالى: «مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ» (الأحقاف / ٣٠).

إنَّ التمسّكَ بهذا النورِ الإلهيّ هو الذي يُخلِّصُ الإنسانَ من ظلماتِ الشكِّ والترديدِ والضياع، ويُطمئنُ قلبَه إلى أنّه يسلكُ الطريقَ القويم. كما يحفظُهُ من شرِّ الشيطانِ ووساوسِه، لأنَّ التمسّكَ بالنورِ هو في حقيقتِهِ اتباعٌ عمليٌّ لتعاليمِ الثقلين، القرآنِ والعترة، والاعتمادُ عليهما في كافّةِ شؤونِ الحياة. وهذا التمسّكُ يُشْبِهُ الإمساكَ بيدِ مَنْ هو أقوى وأعلم وأرحم، فمن استمسكَ بنورِ القرآنِ والعترةِ فقد استمسكَ في الواقعِ بالله سبحانه ذاته، إذ هما مَجْلَيا نُورِهِ وعلائقُ هدايتِهِ في الأرض.

٥. ٢. ١. ٢. النورُ؛ هادٍ إلى الحقّ

من أبرزِ وظائفِ النورِ الإلهيّ أنّه وصفُ الهدايةِ إلى الحقّ، وهو من أكثرِ الأوصافِ اقتراناً بصفةِ النور في المصادرِ الروحيّة والحديثيّة. وأصرحُ موضعٍ وردَ فيه هذا الوصفُ ما في «الصحيفةِ السجّاديّة»، الدعاءِ الثاني والأربعين، إذ يشير الإمام زين العابدين عليه السلام في مطلعِه إلى نزولِ القرآنِ على صورةِ النورِ: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَعَنْتَنِي عَلَى خَتْمِ كِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَهُ نُورًا...»، ثمّ يُتبعُهُ بعدةِ فِقراتٍ تتضمّنُ الوصفَ ذاته في قوله: «وَجَعَلْتَهُ نُورًا نَهْتَدِي بِهِ مِنْ ظُلَمِ الضَّلَالَةِ».

فالقرآنُ ـ بوصفِه نورَ الله المنزَّل ـ هو هادي الخلقِ إلى الصراطِ المستقيم، وقد نَسبَ اللهُ تعالى الهدايةَ إليه في قوله: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ» (الإسراء / ٩)، كما نَسبها إلى الأئمّةِ المصطفَين في قوله: «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا» (الأنبياء / ٧٣).

وتدلُّ التراكيبُ المؤكَّدةُ في آيةِ الإسراء، كصيغةِ الجملةِ الاسميّةِ المصدَّرةِ بـ «إنّ» وتنكيرِ الخبر، على أنّ هدايةَ القرآن هدايةٌ دائمةٌ ممتدّةٌ، لا عرضيّةٌ ولا محدودة؛ بل هي هدايةٌ شاملةٌ «لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ»، أي إلى أقومِ السُّبُلِ وأوثقِ المذاهب. أمّا هدايةُ الإمامِ فهي هدايةٌ بأمرِ الله، هدايةُ إيصالٍ إلى المطلوب، إذ إنّ الأئمّةَ عليهم السلام لا يكتفون بالإرشادِ إلى الطريق، بل يُوصِلون السالكَ إلى الغايةِ نفسها.

ولذلك شُبِّهوا بسفينةِ نوحٍ عليه السلام في قولِ النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله: «إِنَّمَا مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي كَمَثَلِ سَفِينَةِ نُوحٍ، مَنْ رَكِبَهَا نَجَا وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ، وَمَنْ تَقَدَّمَهَا مَرَقَ، وَمَنْ لَزِمَهَا لَحِقَ» (الطبرسيّ، ١٤٠٣ ق، ج ٢، ص ٣٨٠). فالهدايةُ النورانيّةُ للأئمّةِ امتدادٌ للهدايةِ القرآنيّة؛ كلاهما نورُ الحقّ الذي يُخرجُ من الظلماتِ إلى النور، ويقودُ إلى اليقينِ والوصولِ إلى المطلوب.

٥. ٢. ١. ٢. ١. النورُ الإلهيّ في القرآنِ والنبوّةِ والإمامةِ مصدرُ الهدايةِ والطهارة

إنَّ القرآنَ الكريمَ والأنبياءَ والأئمّةَ عليهم السلام وجهٌ من وجوهِ اللهِ سبحانه، لأنّهم تجلّي نورِه الأقدس في عالم الخلق. فشرطُ الهدايةِ في ذاتها، كما شرطُ الهدايةِ للغير، هو الطهارةُ الباطنيّة؛ إذ لا يمكن للنور أن يهدي ما لم يكن هو في ذاته طاهراً من كلّ ظلمة. وكلُّ موجودٍ منبثقٍ من نورِ ربِّهِ يكتسبُ بهذا الانتماء مقامَ الطهارة.

فالقرآنُ، لكونه كلامَ الوحيِ، قد نالَ مقامَ الطهارةِ الذاتيّة، وكذلك الأئمّةُ عليهم السلام لأنّهم في جوهرهم مطهَّرون، وقد دلَّت على ذلك آيةُ التطهير: «إِنَّما يُريدُ اللهُ لِيُذهِبَ عَنكُمُ الرِّجسَ أهلَ البيتِ ويُطَهِّرَكُم تَطهيراً» (الأحزاب / ٣٣) التي نزلت، بحسب الأخبارِ المتواترة، في أهلِ بيت الرسول صلّى الله عليه وآله، فهي تشيرُ إلى طهارتِهم الباطنيّة المطلقة.

وبذلك يتبيّنُ أنّ القرآنَ والإمامَ ثَقَلانِ في عالمِ الدنيا، وحقيقةٌ واحدةٌ في عالمِ الملكوت، يشتركان معاً في أداء وظيفةِ الهدايةِ الإلهيّة. فإذا قيلَ إنّ الأئمّةَ هادون، فالمعنى: أوّلاً أنّهم مهديّونَ بأنفسِهم من قِبَل الله تعالى، ولا يحتاجون إلى هادٍ سواه، وثانياً أنّ الهدايةَ التي يُفيضُها اللهُ على الناس إنّما تتحقّق عن طريقِهم وحدَهم، كما قال تعالى: «أفَمَن يَهدي إلى الحقّ أحقُّ أن يُتَّبَعَ أمَّن لا يَهِدِّي إلّا أن يُهْدى...» (يونس / ٣٥).

وكذلك القرآنُ هادٍ لأنّ اللهَ سبحانه وصفه في مواضعَ عديدةٍ بأنّه كتابُ هداية، فقال: «هُدىً لِلنّاسِ»، «هُدىً وَرَحْمَةً وَبُشرى لِلمُسلِمين»، «هُدىً لِلمُتَّقين» (الجوادي الآمليّ، ١٣٨٩ ش، ص ٣٦–٣٧). والقرآنُ هدايةٌ في ذاته، وهدايةٌ لغيره، فهو في جوهرِ وجوده نورٌ هادٍ، كما هو هادٍ بنورِه.

أمّا شرطُ هدايةِ الإنسانِ فهو الإيمانُ بالله تعالى، كما في قوله: «مَن يُؤمِنْ باللهِ يَهْدِ قلبَه» (التغابن / ١١). فالإيمانُ نورٌ يُلقيه اللهُ في قلبِ من يشاءُ من عبادِه، وقد عبّر القرآنُ عن ذلك قائلاً: «ما كُنتَ تَدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ ولكن جعلناه نُوراً نَهدي به من نشاءُ من عبادِنا وإنّك لَتَهدي إلى صراطٍ مستقيمٍ» (الشورى / ٥٢). فتجلّي هذا النورِ هو حقيقةُ القرآن والعترة، وبه تتحقّق الهدايةُ نحو الصراطِ المستقيم.

والهدايةُ إلى الطريقِ القويم ملازمةٌ لنورٍ ظاهرٍ يصفه القرآنُ بأوصافِ النجوم: «وهو الذي جعل لكم النّجومَ لِتَهتَدوا بها في ظلماتِ البرّ والبحرِ» (الأنعام / ٩٧). وأكملُ مصاديقِ النجومِ في هذه الآية هو القرآنُ والأئمّةُ عليهم السلام، إذ لا تتحققُ الهدايةُ إلاّ بهما. ولذلك قال أميرُ المؤمنين عليه السلام: «مَثَلُ آلِ محمّدٍ كمَثَلِ النّجومِ، كلّما غابَ نجمٌ طَلَعَ آخر» (الاسترآباديّ، ١٤٠٩ ق، ص ١٧٠).

فكلُّ آيةٍ من آيات الكتاب العزيز تُشبهُ نجماً ينيرُ سبيلَ البشر، وقد جاء في القرآنِ: «أَوَمَن كانَ ميّتاً فأحيَيناهُ وجعلنا لهُ نوراً ي مشي بهِ في الناس...» (الأنعام / ١٢٢)،
أي النورُ الذي به يحيا الإنسانُ بعد ظلمةِ الجهلِ، وهو نورُ ولاية الإمامِ عليّ عليه السلام. فمن اقتدى به نال الهداية، ومن جه لَ إمامَه فقد غمرَتْهُ الظلمات وانقطع عن السبيل المنير (الاست رآباديّ، ١٤٠٩ ق، ص ١٧٢).

٥. ٢. ١. ٣. النورُ؛ المُضيءُ والمُبيّن

إنّ النورَ ـ كما يدلُّ اسمُه ـ له وظيفةُ الإضاءةِ والكشفِ، فهو يُزيلُ الظلمةَ والغموضَ عن الأشياءِ، ويكشفُ الحجبَ عنها. وفي لسانِ الأدعيةِ والآياتِ والرواياتِ وُصفَ النورُ بوجودِ اللهِ تعالى، كما في مطلعِ آيةِ النور، وكما في عبارةِ دعاءِ كميل: «بِنُورِ وجْهِكَ الذي أضاءَ لهُ كلُّ شيء» (الطوسيّ، ١ ٤١١ ق، ج ٢، ص ٨٤٤).

والإضاءةُ قد تأتي بمعنى إتاحةِ الرؤيةِ للأشياء، وقد تأتي بمعنى إظهارِ معنًى أو تبيينِ حقيقةٍ فكريّة. وقد استُعمل النورُ في القرآنِ بهذا المعنى الثاني، كما في قوله تعالى: «يا أيّها النّاسُ قد جاءَكم برهانٌ من ربّكم وأنزلنا إلي كم نوراً مبيناً» (النساء / ١٧٤)، حيثُ يَجمع وصفُ النورِ بين الكشفِ الحسّي والتوضيحِ المعنوي. ومن هنا يُعدُّ التبيينُ والكشفُ أحدَ وظائفِ الوصفِ النورانيّ.

ولما سُئل الإمام الصادق عليه السلام عن معنى هذه الآية، قال: «النورُ المبينُ هو عليّ بن أبي طالب» (الاسترآباديّ، ١٤ ٠٩ ق، ص ١٥٠). فالتبيينُ قد يكونُ كشفاً مباشرًا لحقيقةٍ قائمة، وقد يكونُ تفسيراً لموضوعٍ أساسيّ يُهيّئُ الإنسانَ لبلوغِ السعادةِ؛ إذ إنّ كشفَ الحقيقةِ أو فهمَ المعنى الجوهريّ يوجّهُ الإنسانَ نحو الكمالِ والهدايةِ الحقّة.

يبتدئُ اللهُ سبحانهُ سورةَ الزخرفِ بقَسَمٍ جليلٍ في قوله تعالى: «حم وَالْكِتابِ الْمُبين إنّا جعلناهُ قرآناً عربيّاً لعلّكم تعقلون وإنّهُ في أمّ الكتاب لدينا لعليٌّ حكيمٌ» (الزخرف / ١– ٤). فهو يُقسم بالكتابِ المبين، ذلك الذي هو بذاته منيرٌ ومُضيءٌ، مُبيّنٌ لكلِّ حقائق الوجود. وحين تجلّى ذلك الكتابُ من عالمِ الغيب إلى عالمِ الشهادة، ظهر في لباس اللفظِ والعربيّةِ المب ينة؛ أمّا في مقامِه العلويّ، الواردُ عليه التعبير الإلهيّ: «وإنّه في أمّ الكتاب لدينا لعليٌّ حكيم»، فلا يُرادُ به اللفظُ ولا اللغةُ، بل ه و كتابٌ علويٌّ حكيمٌ رفيعُ القدرِ لدُنِّيُّ المقام.

وهنا يتجلّى وجهٌ من أوجهِ المماثلةِ بين القرآنِ والإمام، إذ لا يُدرِكُ حقيقةَ الكتابِ العلويّ إلّا من بلغَ قمّةَ القربِ الربّانيّ الذي أشارت إليه الآيةُ: «ثمَّ دَنا فتدلّى فكانَ قابَ قوسينِ أو أدنى» (النجم / ٨– ٩)، أولئك الذين أثّروا القرآنَ من عالمِ اللَّدن إلى عالمِ الخلق «وإنّكَ لتُلَقّى القرآنَ من لَدُن حكيمٍ عليم» (النمل / ٦).

إنّ خاصيّة النوريّة في القرآنِ هي أنّ معارفَهُ كلَّها مُشرقةٌ محصَّنةٌ من الكدَر، وأنّهُ يُخلّصُ المجتمعاتِ الإنسانيّة من ظلماتِ الاعتقادِ والأخلاقِ والحَيرة، ويقودُها إلى الصراطِ المستقيم (الجوادي الآمليّ، ١٣٨٩ ش، ص ٢٠، ٧٦). ولهذا كثُرَ قسَمُ اللهِ به في القرآنِ؛ فكلُّ ما أقسَمَ به الحقُّ تعالى دليلٌ على عظمِ قدرِهِ وجلالِ شأنه. ومن دلائلِ فضلِ الكتابِ أيضاً نزولُه في «اللّيلةِ المباركة» أي ليلةِ القدر، كما قال تعالى: «إنّا أنزلناهُ في ليلةٍ مباركةٍ إنّا كنّا منذرين» (الدخان / ٣).

وقد رُويَ أنّه لما سُئلَ الإمامُ الرضا عليه السلام عن تفسيرِ هذه الآياتِ الكريمة، أشار إلى تفسيرِها الباطنيّ، فقال: إنّ «الكتابَ ا

لمبين» هو أميرُ المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وأمّا «ا للَّيلة المباركة» فهي السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام (الاست رآباديّ، ١٤٠٩ ق، ص ٥٥٥).

فبهذا تظهرُ الرابطةُ الأنطولوجيّةُ بينَ القرآنِ وأهلِ البيت عليهم ا لسلام: فالكتابُ نورٌ في عالم اللفظ، وهم النورُ في عالم الوجود؛ وكلاهما تجلٍّ لمقامِ «لدُن حكيمٍ عليم» الذي ينبعثُ منهُ الفيضُ الإلهيُّ على البشر.

٥. ٢. ١. ٣. ١. خاصّيّةُ الإنذارِ في البَيانِ النورانيّ

تُعدُّ خاصّيّةُ الإنذارِ من المقاصدِ الأساسيّةِ في البيانِ القرآنيّ، وقد أكّدَتْها آياتٌ كثيرةٌ. فإنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله قد بدأ دعوتَهُ بالتبليغِ والإنذارِ المستمرَّين، عبر ما أوحاهُ إليه اللهُ من القرآنِ ليكونَ وسيلةً لهدايةِ الناسِ وكشفِ الحقائقِ لهم، كما قال تعالى: «وأُوحيَ إليَّ هذا القرآنُ لأُنذرَكم به ومَن بلغ» (الأن عام / ١٩).

وقد وردَ في روايةِ الإمامِ الصادق عليه السلام أنّ مَن بلغَ مقامَ الإمامةِ من آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين، فإنّه ينذرُ بذلك القرآنِ نفسَهُ الذي أنذرَ به رسولُ الله (الاسترآباديّ، ١٤٠٩ ق، ص ١٦٨). وعل ى هذا، كما أنّ القرآنَ نازلٌ دوماً على رسولِ الله. لقوله تعالى «ونزلنا عليك الكتاب» (النحل / ٨٩). كذلكَ يتلقّى الأئمّةُ عليهم السلام من أنوارِ ذلك الكتابِ على نحوٍ دا ئمٍ؛ ولذا فهم الوحيدون الذين يقدرونَ أن يُبيّنوا القرآنَ كما هو، أي بشرطِ تَحَقّقِ وصفِه الإلهيِّ «تبياناً لكلِّ شيء».

وإذا وُصفَ القرآنُ بأنّهُ «يُبيّنُ كلَّ شيء»، فذلكَ يعني أنّهُ يُظهرُ الحقائقَ لأهلها ويكشفُ المعارفَ الضروريّةَ لسعادةِ طالبي الكمال، غيرَ أنّ هذا البيانَ لا يُدرَكُ إلّا عبرَ عِدلهِ، أي الإمامِ الذي يُماثلهُ في الهداية والنورانيّة، والذي يملكُ بدوره قدرةَ الإيضاح وإحاطةَ العِلم. وفي هذا السياقِ يقول تعالى : «وكلَّ شيءٍ أحصيناهُ في إمامٍ مبين» (يس / ١٢).

وقد جاء تأويلُ «الإمام المبين» في الآيةِ بالنسبةِ إلى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، إذ أُحصيت في ذاته العلومُ كلُّها؛ يعلمُ ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، ك ما تضمُّها العلومُ الكلّيّة في القرآنِ المبين لقوله تعالى: «ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلّا في كتابٍ مبين» (الأنعام / ٥٩).

وعلى وفقِ هذه البيانات، فإنّ الثَّقَلَينِ. القرآنَ والعترةَ الطاهرةَ. هما معاً «تِبيانٌ» ونورُ إيضاحٍ لكافّة الحقائقِ الإلهيّة والكَوْنيّة (الا سترآباديّ، ١٤٠٩ ق، ص ٤٧٧ — ٤٧٨).

٥. ٢. ١. ٤. النورُ؛ الفُرقانُ وتمييزُ الحقِّ من الباطل

منذُ خلقِ آدمَ عليه السلام وإلى اليوم، لم يَزَل الإنسانُ يُواجِهُ جبهتَين متقابلتَين: جبهةَ الحقِّ وجبهةَ الباطل. وفي كلِّ جبهةٍ يقومُ قائدٌ يمثّلُها؛ فقائدُ الحقّ هو تجلّي نورِ اللهِ، وقائدُ الباطلِ هو مظهرُ الظلمةِ والضلال. وإذا أعملَ الإنسانُ عقلَهُ وانفتحَ نورُهُ في قلبه، يمنحُهُ اللهُ تعالى قدرةَ التمييزِ والاختيارِ بين السبيلين.

وقد شبّهَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله العقلَ بالنورِ الذي يُلقى في قلبِ الإنسانِ، فيمكّنهُ من التمييزِ بينَ الحقّ والباطل: «العق لُ نورٌ في القلبِ يُفرّقُ به بين الحقِّ والباطل» (الديلميّ، ١٤١٢ ق، ج ١، ص ١٩٨). وهكذا فإنّ خاصّيّةَ النورِ أنّها تُظهرُ ح قَّ السبيلِ وتُبيّنُ إضلالَ الطريقِ، كما يقول تعالى: «قد تبيّنَ الر شدُ من الغيّ» (البقرة / ٢٥٦).

وعندما يتجلّى هذا النورُ في هيئةِ القرآنِ الكريم، تتجلّى في آياتِه قوّةُ التمييزِ بين الحقِّ والباطل، كما صرّح الكتابُ العزيز: «شه رُ رمضانَ الذي أُنزِل فيهِ القرآنُ هُدىً للناسِ وبيّناتٍ من الهدى والفرقان» (البقرة / ١٨٥). إلّا أنّ هذا التمييزَ خاصٌّ بأهلِ الح قِّ وطالبي الهُدى؛ فإنَّ القرآنَ وإن كان نوراً، فهو لا يزيدُ الظال مينَ إلّا خساراً، كما قال تعالى: «وننزّل من القرآنِ ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنينَ ولا يزيدُ الظالمينَ إلّا خساراً» (الإسراء / ٨٢).

وكذلكَ حين يتجلّى نورُ الحقِّ في شخصِ الإمامِ المعصوم، فهو ا لذي يَفصِلُ بين الحقِّ والباطل ويُمضي في نُصرةِ الحقّ وإبطالِ البا طل؛ وفي الحديثِ: «هذا فاروقُ هذه الأمّة، يُفرّقُ بين الحقِّ والبا طل» (المجلسيّ، ١٤٠٣ ق، ج ٢٢، ص ٢٤٤).

وبناءً على ذلك، فالقرآنُ والإمامُ كلاهما تجلّيان لنورِ الله سبحان ه، وقد اشتركا في وصفِهِمَا الفارقِ: النورِ الذي يفصلُ الحقَّ عن الباطل، فيُحيلُ الإنسانَ من العَمى إلى البصيرة، ومن الظلمةِ إ لى الهداية.

٥. ٢. ١. ٥. الذِّكرُ الإلهيّ: النورُ المُحيي للقلب

عندَ التأمّلِ في نظامِ الوجودِ، يُدرَكُ أنّ الكونَ قائمٌ على أزواجٍ متقابلةٍ تتوالى إشاراتُها في الآياتِ الإلهيّة، وكلّ واحدةٍ منها تُذكّرُ الإنسانَ
بخالقِه تعالى: «الحمدُ للهِ الذي خلقَ السماواتِ والأرضَ وجعلَ الظلماتِ والنورَ...» (الأنعام / ١). وهذه الثنائياتُ
ليست منفصلةً عن بعضِها، بل يربطُها نظامٌ تشبيهيٌّ بديعٌ يُنبّ هُ الإنسانَ إلى مواقع الاعتبار. ومن أبرزِ هذه الأزواجِ الحقائقُ ا لمتقابلةُ
بين الظلمةِ والنور، التي يمكنُ تمثيلُها بالحياةِ والموتِ في الأرض؛ فالأرضُ الحيّةُ تتبرهنُ حياتُها بثمرِها ونورِها، وأمّا الميّتةُ فقد غشيَ ها الظلامُ ولم تنبتْ خيراً.

وهكذا قلبُ الإنسانِ؛ فهو بمثابةِ الأرضِ التي تُلقى فيها بذورُ الم عرفةِ والهداية. فإذا قَبِلَ القلبُ نورَ اللهِ، جعلَ اللهُ فيه نوراً يمشي به صاحبه بين الناس، كما قال تعالى: «أوَ مَن كانَ ميّتاً فأحي يناهُ وجعلنا لهُ نوراً يمشي به في الناسِ كمن مثلهُ في الظلماتِ لي س بخارجٍ منها، كذلك زُيّنَ للكافرينَ ما كانوا يعملون» (الأنعا م / ١٢٢).

إنّ هذا النورَ الذي يُضيءُ طريقَ السعادةِ البشريّةِ يكونُ في حقي قتهِ ذكراً لله وتذكيراً به، إذ لا ينقدحُ نورُ الهدايةِ في القلبِ إلّا ب ذكرٍ حيٍّ متواصلٍ. ومن هنا نبّه أميرُ المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام قائلاً: «عليك بذكر اللهِ، فإنّه نورُ القلوب» (الت ميميّ الآمديّ، ١٤١٠ ق، ج ١، ص ٤٤٣)، وفي موضعٍ آخ ر قال: «ذِكْرُ اللهِ نورُ الإيمان» (المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٦ ٩).

فبمقتضى هذه النصوص، الذكرُ الإلهيُّ هو الواسطةُ بين الحياة والموت القَلبيَّين؛ وبه يتحوّل الإنسانُ من ظلمةِ الغفلةِ إلى نورِ ا لحضور، ومن جمودِ الجهلِ إلى حركةِ المعرفة والهدايةِ. فهو نورٌ يُح يي القلوبَ كما يُحيي الربيعُ الأرضَ بعد موتِها، وبه يتجلّى أثرُ ا لثَّقَلين في إحياءِ الإنسانِ بجمعِ العقلِ والوحيِ والذكرِ الإلهيّ الذ ي هو أصلُ نوريّتِهما.

٥. ٢. ١. ٥. ١. القرآنُ والإمامُ مظهرانِ للذّكرِ الإلهيّ

كما أنّ القرآنَ الكريمَ وُصِفَ بأنّه ذِكرٌ، إذ قال تعالى: «كَلّا إنّه ا تذكرةٌ فمَن شاءَ ذكرَهُ» (عبس / ١١ — ١٢)، فهو تذكرةٌ لذاتِهِ وللقلوبِ المستعدةِ ولأتباعِهِ من المؤمنين . وكذلكَ جاء إطلاقُ الذِّكرِ في القرآنِ على الإمامِ المعصوم علي ه السلام، في قوله تعالى: «إنّما تُنذرُ مَنِ اتّبعَ الذِّكرَ...» (يس / ١١)، حيثُ فَسّرَ العارفون بهذه الآيةِ الذِّكرَ بأميرِ المؤمنين عل يه السلام وبِمَن اتّبعهُ (الاستراباديّ، ١٤٠٩ ق، ص ٤٧٧). فا

لأئمّةُ عليهم السلام بأنفسِهِم ذِكرٌ، لأنّهم مواضعُ التذكير ومآ خ ذُ الهُدى، ومن ثمّ فإنّ اتباعَهُم يُؤثّرُ في النفوسِ ويقودُها إلى الإن ابة.

وحيثُ إنّ القرآنَ والعترةَ كلاهما يُطلقُ عليهما وصفُ الذِّكرِ وال ذّاكر، فقد جعلَ القرآنُ المرجعيّةَ في طلبِ العلمِ وحلِّ الاشتباه م حصورةً فيهما: «فاسألوا أهلَ الذِّكرِ إن كنتم لا تعلمون» (النح ل / ٤٣). فالرجوعُ إليهم هو السبيلُ الوحيد لتحصيلِ المعرفةِ ال صحيحة وفهمِ الحقائقِ الإلهيّة.

ثمّ إنّ القرآنَ والإمامَ المعصوم عليه السلام ليسَا فقط مصدَرَ الع لمِ والتذكير، بل هما أيضاً مَلجأُ السكينةِ ومنبعُ الاطمئنانِ الروح يّ؛ إذ كلّ ما كان منسوباً إلى نورِ اللهِ تعالى يُفيضُ سلاماً على القلبِ. قال سبحانهُ: «ألا بذِكرِ اللهِ تطمئنُّ القلوب» (الرعد / ٢٨). ومن ثمّ فإنّ القرآنَ والإمامَ كلاهما تجلٍّ لنورِ الله العظيم، وإنّ مجردَ ذكراهُما يُورثُ طمأنينةَ النفسِ وانشراحَ الصدر، فهما في الواقعِ مصداقُ الذِّكرِ الإلهيّ بعينه.

٥. ٢. ١. ٦. اليقينُ القلبيّ ونورُ الإيمان

اليقينُ يقفُ في مقابلةِ الشكِّ وعدمِ الاطمئنانِ؛ فإذا بلغَ الإنسانُ درجةَ اليقينِ في أمرٍ ما، انبسطَ ف ي قلبِهِ نورٌ يملؤهُ سكينةً وبصيرةً، كما جاء في الدعاء: «أن تملأَ قلبي نورَ اليقين» (المجلسيّ، ١٤٠٣ ق، ج ٩١، ص ٢). ولهذ ا عدَّت الرواياتُ اليقينَ من مصاديقِ النور، إذ قال أميرُ المؤمنين عليه السلام: «اليقينُ نورٌ» (التميميّ الآمديّ، ١٤١٠ ق، ج ١، ص ٢٠). فاليقينُ إذاً ليس مجردَ تصديقٍ ذِهنيٍّ، بل هو نورٌ ينتشرُ في القلبِ فيضفي عليه صفاءً وهدى.

والقرآنُ الكريمُ والإمامُ المعصومُ عليه السلام لأنّهما من حقيقةٍ وا حدةٍ متصلةٍ بنورِ الله، فهما في جوهرِهما حقيقةٌ يقينيّةٌ خالصةٌ لا يدخُلُها شَكٌّ ولا ريبٌ. فمَن تمسَّكَ بهما، أجرى اللهُ نورَ اليقينِ في قلبِهِ وسَرَى بِهِ في كيانِهِ، ومَن فَصَلَ بينَهُما عقيدةً أو عملاً، لم يَنفُذ إلى حقيقةِ اليقينِ الملتحمِ بنورِهما.

وفي ختامِ سورةِ الحاقّة، بعد بيانِ صفاتِ القرآنِ، يقولُ تعالى مؤ كّداً يقينيَّتَهُ: «وإنّهُ لحقُّ اليقين» (الحاقّة / ٥١). فالقرآنُ بما أنّهُ من جوهرِ النورِ، فهو في نفسِهِ حقٌّ يقينٌ لا يعتريهِ ضللٌ ولا غم وض، ويبلّغُ المؤمنَ الذي يعتصمُ به وبالعترةِ الطاهرةِ مرحلةَ اليق ينِ القلبيّ؛ إذ إنّ النورَ — كما تبيّنَ من قبل —
يضيءُ ذاتهُ ويُضيءُ ما سواهُ.

إنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام —
وهو القرآنُ الناطقُ والمجسّدُ لحقائقِهِ —
قد بلغَ قمّةَ مراتبِ اليقين، فهو على بيّنةٍ من ربّه وبصيرةٍ في دي نِهِ وثباتٍ مطلقٍ في أمرِهِ، كما قال عليه السلام: «إنّي لَعَلى بيّنةٍ من ربّي وبصيرةٍ في ديني ويقينٍ في أمري» (التميميّ الآمديّ، ١ ٤١٠ ق، ج ١، ص ٢٦٣). وصرَّح عليه السلام أيضاً: «لو كُ شِفَ الغطاءُ ما ازددتُ يقيناً» (المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٦٦)، أي إنّ اليقينَ الذي يحملهُ قد بلغَ من الكمالِ مقاماً لا يزيدهُ انكشافُ الغيبِ ولا ظهورُ الحقيقة.

ومن هنا يستفادُ أنّ العَنصرَ الذي يُثبّتُ الإنسانَ على هدفِهِ ول ا يُصيبهُ باليأسِ أو الفتورِ هو اليقين. فمن تملّك اليقينَ بغايتِهِ، لا يتزعزعُ إيمانهُ ولا تتبدّلُ وجهتُهُ ولو تكاثرت عليه المِحنُ؛ إذ اليق ينُ نورٌ في القلبِ ينهضُ بصاحبِهِ عند كلّ ابتلاءٍ ويثبّتُهُ على الح قّ.

وعلى هذا الأساس، فإنّ بلوغَ أعلى مراتبِ اليقين —
الذي هو وجهٌ من وجوهِ النور الإلهيّ —
إنّما يتحقّقُ بالتمسّكِ الصادقِ بالثَّقَلين: القرآنِ الكريمِ وأهلِ ال

بيت عليهم السلام؛ فمن استمسكَ بهما نالَ النورَ واليقينَ معاً، ومن أعرضَ عنهما ظلّ في ظلماتِ الشكِّ والضلال.

٥. نتائجُ البحثِ

أظهرتِ الدِّراسةُ التحليليّةُ المقارنةُ لنورِ القرآنِ والعِترةِ أنّ هذين المنبعَينِ الإلهيَّينِ يتَّحدانِ في الأصلِ والمصبِّ، فهما صادرانِ عن مصدرٍ واحدٍ من النورِ الإلهيّ، يقومانِ بمهمّةِ الهدايةِ والتنويرِ وإيصالِ الإنسانِ إلى السعادةِ في الدارين. فالقرآنُ كتابٌ ناطقٌ، والعترةُ إنسانٌ ناطقٌ، وكلاهما مظهرانِ لإرادةِ الله في هدايةِ الخلق، متلازمانِ لا ينفصلُ أحدُهما عن الآخر، لأنّ التمسّك بأحدِهما دون الآخر نقصانٌ في الفهمِ والإيمان.

كما بيّنتِ الآيةُ
(نور/٣٥) والرواياتُ التفسيرية المتعلّقة بها أنّ النورَ الإلهيَّ
قد تجلّى في صورتينِ عظيمتينِ
على الأرض: في كلامِ الله (القرآن) وفي وجودِ الأئمّةِ المعصومين (العترة)، ومن هنا يتأكّد أنّ العلاقةَ بينهما هي علاقةُ تلازمٍ ووحدةٍ لا انفصامَ لها.

ومن الجانبِ المعرفيّ والعمليّ، تُظهرُ نتائجُ البحثِ أنّ التمسّكَ بالقرآنِ والعترة ليس مجرّدَ إيمانٍ عَقَديّ، بل هو طريقٌ للإدراكِ العميقِ للذاتِ والكون، وحصولِ اليقينِ في العقيدة والسلوك. فالقرآنُ يرسمُ الطريقَ الإلهيَّ البيّن، والعترةُ تشرحُ وتقيمُ حقائقَهُ في الواقعِ. إنَّ اتحادَ هذينِ المصدرَينِ النورانيَّينِ يوفّرُ للفرد والمجتمع توازناً روحياً وفكرياً قادرًا على إحداثِ تحوّلٍ حضاريٍّ إيمانيٍّ عميق.

كما يُبرزُ البحثُ ضرورةَ الاهتمامِ بوحدةِ الثقلين في الشأنِ العمليّ والثقافيّ، ولا سيّما في المحافلِ والمجالسِ الدينيّة، تحقيقاً لقولِ النبيّ الأكرم صلى اللهُ عليه وآله «تمسّكتم بهما»، إذ إنّ إحياءَ أحدِهما دون الآخر إحياءٌ ناقص.

وفي الخاتمة، يُستنتجُ أنّ نورَ الثقلينِ هو منبعُ الهدايةِ والمعرفةِ والسكينةِ، ولا ينالُ الإنسانُ كمالَ الاستضاءةِ به إلّا إذا نظر إليهما بوصفِهما وجهينِ لحقيقةٍ واحدةٍ، وسار على نهجهما لبلوغِ الكمالِ واليقينِ الحقّ. ويمثّل هذا البحثُ خطوةً في تعميقِ فهمِ حقيقةِ الثقلين ودعوةً إلى التمسّكِ العمليّ والواعي بمصدرَي النورِ الإلهيّ.

٦. قائمة المصادر

القرآن الكريم.

الصحيفة السجاديّة.

١. ابن بابَوَيه، محمّد بن عليّ، الخِصال، جامعة المدرّسين، قم، ١٣٦٢ ش (بالفارسية).

٢. ـــــ، التوحيد، ـــــ، ١٣٩٨ ق.

٣. ابن الأثير الجزري، مبارك بن محمّد، النهاية في غريب الحديث والأثر، مؤسسة المطبوعات الإسماعيليّة، قم، ١٣٦٧ ش (بالفارسية).

٤. ابن شُعبة الحرّاني، حسن بن عليّ، تحف العقول، جامعة المدرّسين، قم، ١٣٦٣ ق.

٥. ابن فهد الحلّي، أحمد بن محمّد، عُدّة الداعي ونجاح الساعي، دار الكتب الإسلاميّة، ١٤٠٧ ق.

٦. ابن عاشور، محمّد طاهر، تفسير التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٤٢٠ ق.

٧. أبو الفتوح الرازي، حسين بن عليّ، روض الجِنان وروح الجَنان في تفسير القرآن، آستانة القُدس الرضويّة، مشهد، ١٤٠٨ ق (بالفارسية).

٨. الاسترآبادي، عليّ، تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة، مؤسسة النشر الإسلاميّ، قم، ١٤٠٩ ق.

٩. الأفندي، ميرزا عبد الله، رياض العلماء وحِياض الفضلاء، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٤٠١ ق.

١٠. باقري، مريم، تحليل ودراسة التشبيهات والتمثيلات القرآنية والشبهات الواردة عليها، رسالة جامعية، ١٣٩٢ ش (بالفارسية).

١١. البهارانچي، السيّد محمّد، تفسير أهل البيت عليهم السلام، مطيع، ١٣٩٣ ش (بالفارسية).

١٢. التميمي الآمَدي، عبد الواحد بن محمّد، غُرَرُ الحكم ودُرَرُ الكَلِم، دار الكتاب الإسلامي، قم، ١٤١٠ ق.

١٣. الترمذي، محمّد بن عيسى، سنن الترمذي، دار الحديث، مصر، ١٤١٩ ق.

١٤. الجوادِي الآملي، عبد الله، همتائي القرآن وأهل البيت عليهم السلام، نشر إسراء، قم، ١٣٨٩ ش (بالفارسية).

١٥. الحسن بن عليّ، التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام، مدرسة الإمام المهدي (عج)، قم، ١٤٠٩ ق.

١٦. الحسيني، زينب السادات، دراسة ماهيّة التأويل ومبانيه وأنواعه في كتاب تأويل الآيات الظاهرة، مجلة پژوهش‌نامه تأويلات قرآنى، ربيع وصيف ١٣٩٩ ش، العدد ٤ (بالفارسية).

١٧. الحسيني أجدادنياكي، السيّد إسماعيل وآخرون، دراسة الأمثال الأدبيّة القرآنية، مجلة الدراسات التفسيرية، شتاء ١٣٨٩ ش، العدد ٤ (بالفارسية).

١٨. الحسيني الهمداني، محمّد، أنوار درخشان في تفسير القرآن، دار لطفي، طهران، ١٤٠٤ ق (بالفارسية).

١٩. الحلّي، رضيّ الدين عليّ بن يوسف، العَدَد القويّة لدفع المخاوف اليوميّة، مكتبة آية الله المرعشي النجفي، قم، ١٤٠٨ ق.

٢٠. الديلمي، حسن بن محمّد، إرشاد القلوب، دار الشريف الرضي، قم، ١٤١٢ ق.

٢١. الزمخشري، محمود بن عمر، الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧ ق.

٢٢. الراغب الإصفهاني، حسين بن محمّد، مفردات ألفاظ القرآن، دار القلم، بيروت، ١٤١٢ ق.

٢٣. السبحاني، جعفر، الأمثال القرآنية المعلّمة في بيان سبعةٍ وخمسين مثلاً قرآنيّاً، مؤسسة الإمام الصادق (سلام الله عليه)، الطبعة الأولى، قم، ١٣٨٢ ش (بالفارسية).

٢٤. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور، مكتبة آية الله المرعشي النجفي، قم، ١٤٠٤ ق.

٢٥. الشريف الرضي، محمّد بن الحسين، نهج البلاغة (تحقيق: صبحي صالح)، دار الهجرة، قم، ١٤١٤ ق.

٢٦. الشيخ الحر العاملي، محمّد بن الحسن، أمل الآمل في علماء جبل عامل، مكتبة الأندلس، بغداد، ١٣٨٥ ش (بالفارسية).

٢٧. الصفّار، محمّد بن الحسن، بصائر الدرجات في فضائل آل محمّد صلى الله عليهم وسلّم، مكتبة آية الله المرعشي النجفي، قم، ١٤٠٤ ق.

٢٨. الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٣٩٠ ق.

٢٩. ــــ، القرآن في الإسلام، بوستان الكتاب، قم، ١٣٩٦ ش (بالفارسية).

٣٠. الطبرسي، أحمد بن عليّ، الاحتجاج على أهل اللجاج، نشر مرتضى، مشهد، ١٤٠٣ ق.

٣١. الطوسي، محمّد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٨٢ ق.

٣٢. ــــ، الأمالي، دار الثقافة، قم، ١٤١٤ ق.

٣٣. ــــ، مصباح المتجهّد وسلاح المتعبّد، مؤسسة فقه الشيعة، بيروت، ١٤١١ ق.

٣٤. العيّاشي، محمّد بن مسعود، تفسير العيّاشي، المطبعة العلميّة، طهران، ١٣٨٠ ش (بالفارسية).

٣٥. الفخر الرازي، محمّد بن عمر، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠ ق.

٣٦. القمّي، عليّ بن إبراهيم، تفسير القمّي، دار الكتاب، قم، ١٤٠٤ ق.

٣٧. القمّي المشهدى، محمّد بن محمّد رضا، تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب، مؤسسة الطباعة والنشر، طهران، ١٣٦٨ ش (بالفارسية).

٣٨. الكاشاني، فتح الله بن شكر الله، منهج الصادقين في إلزام المخالفين، مكتبة الإسلاميّة، طهران، ٩٨٢ ق.

٣٩. الكفعمي، إبراهيم بن عليّ العاملي، المصباح للكفعمي، دار الرضي، قم، ١٤٠٥ ق.

٤٠. الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، ١٤٠٧ ق.

٤١. لطفي، حسين، آية النور في منظور العلماء المسلمين، مجلة مشكات، العددان ٨٤–٨٥، ١٣٨٣ ش (بالفارسية).

٤٢. المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٣ ق.

٤٣. المكارم الشيرازي، ناصر، أمثال القرآن، نسل جوان، قم، ١٣٨٠ ش (بالفارسية).

٤٤. النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، دار الطباعة العامرة، ١٣٣٤ ق.